المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

334

من أدب هنود أمريكا الشمالية

• حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم

تأليف: فلاديمير هلباتش

ترجمة: د. موسى الحالول

مراجعة: د. زبيدة أشكناني

سلسلة شهرية محكّمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

فبراير 2002

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم

من أدب هنود أمريكا الشمالية

تأليف: فلاديمير هلباتش
ترجمة: د. موسى الحالول
مراجعة: د. زبيدة أشكناني

العدد 334 فبراير 2002

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:
د. محمد الرميحي
mgrumaihi@hotmail.com

هيئة التحرير:
أ. سليمان داوود الحزامي/ مستشارا
د. حيدر غلوم خاجة
د. زبيدة علي أشكناني
د. سعاد عبدالوهاب العبد الرحمن
د. سليمان علي الشطي
أ. فارس جون غلوب
د. محمد المنصف الشنوفي

مديرة التحرير
وسمية الولايتي

التنضيد والإخراج والتنفيذ:
وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولاراً أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 23996 - الصفاة - الرزمز البريدي 13100
دولة الكويت

ردمك ٤ - ٠٦٩ - ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN 99906 - 0 - 069 - 4

• حكايات الهنود الامريكيين وأساطيرهم

من أدب هنود أمريكا الشمالية

العنوان الأصلي :

• American Indian Tales and Legends

Vladimir Hulpach

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2002م

إبداعات عالمية - العدد 334

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها : أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

اسم اللوحة : أمنا الأرض

الفنان : جعفر دشتي - الكويت

المادة : ألوان زيت

القياس : ١١٧ x ١١٧ سم

تصدير

في هذا العدد من سلسلة «إبداعات عالمية» نضع بين يدي القارئ العربي المجموعة القصصية «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم»، وهي حكايات قديمة وأساطير ثرية اضطلع بجمعها الكاتب التشيكي فلاديمير هلباتش، فاتحا أمام القارئ هذه النافذة النادرة للوقوف على ثقافة أمة لم يعد لها وجود إلا في كتب التاريخ ومراجع الأنثروبولوجيا!

لقد كان للهنود الأمريكيين الذين تعكس بعضا من ثقافتهم هذه المجموعة من القصص حضارة مزدهرة مفعمة بالمعاني الإنسانية الراسخة، إلى أن بلغ المكتشف الإسباني- الإيطالي الأصل - كريستوفر كولومبوس شواطئ بلادهم (التي سماها الأوروبيون بعدئذ «العالم الجديد»)، معلنا بدء انحسار هذه الحضارة القديمة، ومن ثم اتجاهها المسرع في طريق الزوال(!)، بعد أن باد أصحاب هذه الحضارة عن آخرهم، تقريبا، ولم يتركوا خلفهم سوى ذكريات تتمثل في قصص وأساطير حفظها الأبناء عن أجدادهم الهنود الحمر، سكان القارة الأمريكية الأصليين، كأنما ليقولوا - من خلالها - «إنه كانت هاهنا أمة وحضارة»، مجسدين البعد الإنساني الذي ينظر للحضارات جميعا على أنها، مهما اختلفت وتباينت، تكمن قيمتها الحقة في تلبيتها لحاجة أبنائها من ناحية، وإسهامها في تيار الحضارة البشرية بعامة من ناحية أخرى.

ولعل هذا المنظور النبيل في تقييم الحضارات هو ما حدا هيئة تحرير سلسلة «إبداعات عالمية» على نشر هذه المجموعة من حكايات

الهنود الأمريكيين، لإبراز براعة هذه الأمة - المنقرضة - في الإبداع الأدبي والقصصي، بما يبين أنهم لا يقلون في شيء عن بقية الأمم والشعوب، خاصة في مضمار الثقافة والإبداع.

من هذا المنطلق يمكن لهيئة تحرير السلسلة أن «تدعي» - بكل تواضع - أنها إذ تفتح هذه النافذة الثرية على ثقافة الهنود الحمر وأدبهم (بعد أن طوى النسيان سيرة شعوبهم)، إنما تضيف إنجازا جديدا إلى إنجازاتها التي تحرص من خلالها على إغناء مكتبة القارئ العربي بكل ما هو عميق ومتفرد في عالم «الإبداعات العالمية».

ولا بد لنا من أن نذكّر بجهود الكاتب التشيكي فلاديمير هلباتش الذي تميز باهتمامه بالحكايات الشعبية وأساطير الشعوب، بالإضافة إلى المقدمة التي وضعها لهذه المجموعة، إسهاما منه في إعادة شيء من الاعتبار الأدبي والتاريخي لسكان أمريكا الشمالية الأصليين.

أ.د. محمد غانم الرميحي

شكر وعرفان

إلى كل الذين مدّوا إليَّ يد العون والتشجيع لإنجاز هذا العمل، وأخص بالشكر كلا من الصديق الدكتور حسان الشامي، الذي دقق المخطوطة بعناية حانية، فأنقذني من هفوة في النحو هنا، وعثرة في الأسلوب هناك؛ وكذلك الزميلة الآنسة لما ونّوس التي ساعدتني في إجراء المطابقة بين الأصل الإنجليزي والترجمة العربية. خالص التقدير والامتنان تستحقهما أيضا الآنسة زاهر بيطار، التي تطوعت بإجراء المرحلة الأخيرة من التنقيحات والتعديلات بوساطة الحاسوب. وأخيرا وليس آخرا، أتقدم بجزيل الشكر للآنسة عواطف أسعد التي قامت بطباعة المخطوطة وتنضيدها على الحاسوب بعناية وإخلاص نادرين.

د. موسى الحالول

مقدمة المؤلف

عندما كانت ريح المساء تداعب قمم الأشجار العارية، والثلج يهطل بلا توقف على أكواخ الجريد، كان الهنود يجتمعون، شيبا وشبانا، ليستمعوا إلى حكايات حكمائهم.

ولم يكن الهنود الحمر أقل كفاءة في رواية القصص من غيرهم في بقاع الدنيا قاطبة. وعلى الرغم من أن حكاياتهم لا تروي عن فرسان ينتصرون بمساعدة سيوف سحرية، ولا عن ملوك جبابرة أو ناسكين أتقياء، لكنها كانت تتحدث عن كائنات ذات قدرات سحرية، وكانت هذه الكائنات في أغلب الأحيان من الحيوانات.

ولكن، لماذا الحيوانات؟

كان الهنود في شمال أمريكا يعيشون في العراء، وكانت الحيوانات البرية التي استطاعوا أن يقتلوها تشكل في غالب الأحيان مصدر غذائهم الرئيس. كانوا مهرة في اقتفاء أثر الحيوانات، عارفين بموعد قدوم الإوز البري وقطعان البيسون، لكنهم احتاروا في تفسير هذه الظاهرات المتكررة تفسيرا شافيا، لهذا اعتقدوا أن الطبيعة تتألف من كائنات عدة غير مرئية، أي من الأرواح، وأن هذه الأرواح خاضعة، كما هي حالهم، لحكم كبير الأرواح. وكان لكبير الأرواح أسماء مختلفة تختلف باختلاف الأقاليم، ومن بين هذه الأسماء «مانيتو»، «تيراوا»، و«اكوندا»، «سيباس»... إلخ.

كانت بعض الحيوانات والأرواح صديقة للإنسان، وبعضها الآخر لم يكن كذلك.

أحد هؤلاء الأصدقاء عند سكان الشمال الشرقي هو «منابوش» (أو «منابوجو»، أو «ننابوجو»، أو «منافابوش»... إلخ) والحقيقة أن اسمه يعني الأرنب الكبير. وغالبا ما يظهر منابوش هذا في حكاياتهم بهيئة بشرية، ويصبح شخصا محتالا كلما تقلّد هيئته الحيوانية؛ عندها يصبح حدوث المصائب أمرا متوقعا، وفي أغلب الأحيان تقع على رأسه هو.

ومن المروج إلى كاليفورنيا مرورا بالجبال الصخرية، تُحكى القصص عن القيّوط(*)، أحد أقرباء «منابوش» البعيدين، الذي استخدم قواه بالدرجة الأولى لإفساد كل خيرات العالم في زمن الأساطير.

لكن أشهر مخلوق عرفته خرافة الحيوان في الشمال الغربي هو الغراب: فقد كان على شاكلة القيّوط، محتالا ماكرا، يضاف إلى ذلك نزوعه إلى الطمع. كان الهنود يعدون نعيقه نذير نحس، ولهذا يجسد الغراب عادة النحس في حكاياتهم.

ينعكس اعتقاد الهنود بقوى الحيوانات الخارقة في أنهم يعدون هذه الحيوانات بمنزلة أسلافهم، وغالبا ما كانوا يستمدون أسماءهم من عالم الحيوان، مثل الظبي الرشيق، وذؤيب... إلخ.

هذا الاعتقاد بالحيوانات تعبر عنه الخرافات والأساطير وحكايات الحيوان، لكن هناك أيضا أعمدة طواطم(**) مصبوغة ومنحوتة من خشب الأرز، تنتصب أمام كل مسكن، بل إنها في قرى الشمال الغربي كانت تشكل غابات كاملة. وكان الهنود يرسمون على هذه الطواطم رؤوس الحيوانات الحامية للقبيلة وأجسادها، كما يسجلون عليها أهم الأحداث في تاريخ القبيلة.

(*) ذئب صغير يعيش في أمريكا الشمالية

(**) الطوطم: نُصب مصنوعة من جذع الشجر منحوت عليها غالبا صور حيوانات أو نباتات، مهمتها التعريف بالقبيلة وحمايتها.

لقد توصل الهنود إلى أصل كثير من أسرار الطبيعة، فعرفوا كيف يوقدون النار، ويشفون العديد من الأمراض، ويقون أنفسهم شر البرد وغيره. وإلى أن جاءت حضارة الإنسان الأبيض، ظلوا يفسرون معظم نواميس الطبيعة وظاهراتها بوساطة الأساطير والقصص المتواترة مشافهة من جيل إلى جيل.

كانت تعيش في شمال أمريكا قبائل هندية عديدة، وكانت تختلف اختلافا كبيرا في أنماط معيشتها، كما يتضح ذلك من خلال حكاياتهم، فعلى سبيل المثال، كان هنود الحراج في الشمال الشرقي يعيشون على صيد الحيوانات البرية، ويسكنون الأكواخ المسماة « Wigwams » (وهي في لغة «الأبنكي» تعني المسكن)، وبما أن منطقتهم كانت مليئة بالبحيرات والأنهار، فقد كانوا يستخدمون القوارب المصنوعة من لحاء شجر البتولا في أسفارهم، لهذا يملك أبطال أساطيرهم سهاما سحرية لا تخطئ أهدافها، ونعالا تقود أصحابها إلى الوجهة الصحيحة، وقوارب سحرية تحلق في الجو كما تحلق الطير. باختصار، يملك أبطال هذه الأساطير كل ما يتمناه صيادو هذه المناطق لأنفسهم.

أما هنود الجنوب الشرقي، فقد كانوا يحبون الاستماع إلى قصص الحيوانات، ولا سيما القصص الفكاهية. وكان أعظم أبطالهم الأرنب، فهو أذكى المخلوقات وأمكرها جميعا، بما في ذلك السنور والقيّوط والثعلب. كما تزخر هذه المنطقة أيضا بأساطير رائعة عن الذرة والتبغ والأعشاب الشافية.

وتمتد إلى غربي المسيسبي، المعروف بأبي الأنهار، سهول لا حدود لها، سهول كانت ذات يوم موطنا لهنود المروج، وكان هؤلاء يعيشون على الصيد، ولا سيما صيد الجواميس، يأكلون لحومها، ومن جلدها يصنعون

كل شيء يحتاجون إليه من ملابس ومراكب وخيام مخروطية الشكل يسمونها «Teepees».

وفي الشرق بنى الهنود أكواخهم في عمق الغابات، لذلك كانوا لا يلمحون السماء المرصعة بالنجوم إلا نادرا، بينما شاهد سكان المروج آلاف النجوم تتلألأ فوقهم كل ليلة. لهذا أمعنوا التفكير فيها، وتساءلوا كيف وصلت السماء، ولماذا بعضها نجوم سيارة وأخرى ساكنة. تخيلوا أن لها وجوها بشرية، تماماً كالشمس والقمر، فعبَّروا عن أفكارهم حول الكون في أساطيرهم.

وعاش بعض الهنود في الجنوب الغربي في قرى يسمونها «Pueblos»، وهي عبارة عن مساكن ذات مصاطب، ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق السلالم. وعلى الرغم من أن هذه المساكن كانت لها عيوبها، إلا أنها ذات منفعة جمة لدى توقع هجوم معادٍ، إذ تتحول عندها القرية إلى حصن حقيقي.

كما وجد سكان القرية أيضا تفسيرا للظاهرات الطبيعية المتعددة في نشاطات القوى الخارقة للطبيعة والأرواح التي سموها «Katchinas». وبما أن سكان الجنوب الغربي كانوا غالبا عرضة للقحط، فإن للمطر الواهب للحياة دورا مهما في أساطيرهم.

أما الهنود في المناطق الساحلية الشمالية الغربية، وخلافا لإخوتهم في كل مكان، فقد كانوا يسكنون بيوتا من خشب الأرز وكانوا يعيشون على صيد الأسماك: كانوا يستخدمون الشباك والسلال لاصطياد سلمون الأنهار المهاجر، وجازوا البحار في قوارب ضيقة يحملون الحربون(*) ليبارزوا الحيتان.

(*) الحربون : رماح تستخدم لصيد الحيتان (المراجع).

كانوا ينصبون أعمدة الطواطم، ويقيمون احتفالا كبيرا يدعى «Potlach»، يحضره القاصي والداني لارتباطه بعيد كبير وتبادل الهدايا.

وكان للمحيط دورٌ في خرافاتهم؛ فكان أبطالهم على الدوام هم الحوت والسلمون وطائر الرعد، ناهيك عن حملة الحرابين من صياديهم البواسل.

ولن تكتمل قائمتنا إن أهملنا ذِكْرَ الهنود في أقصى شمال كندا الذين يجاورون الإسكيمو: كان هؤلاء يصطادون الرَّنَّة، وينتعلون القباقب الثلجية والمزالق كي يتجولوا في بلاد يغطيها الثلج معظم السنة، لهذا غالباً ما تتحدث حكاياتهم وأساطيرهم عن عدوين ملازمين لهم: البرد والجوع.

بقي أن نجيب فقط عن سؤال: لماذا كان القلموت - وهو عبارة عن وسيلة لتدخين التبغ - هو من يروي هذه القصص الهندية؟

كان القلموت الذي يصنع من خشب الدردار أقدس شيء عرفه الهنود. وكانوا يصبغون أنبوبته بألوان رمزية ويزينونه بريش النسر، ويصنعون تجويفه المحفور من الحجر الصابوني الأحمر.

كان الهنود يعدون القلموت بمنزلة المحراب، ويستخدمونه وسيطا يشفع لهم عند الأرواح أو للتعبير عن شكرانهم. كما لعب القلموت دورا رئيسا في مجالسهم واحتفالاتهم، ولا سيما في محادثات الصلح مع القبائل المعادية، ولهذا، فإنه من الطبيعي أن يطلق عليه أيضا لقب «غليون السلام» وهي تسمية جميلة ظلت حية إلى يومنا هذا.

فلاديمير هلباتش

قال القلموت

في العصور الغابرة، أيام أجدادنا، كان السلام يسود بلاد الهنود الأمريكيين قبل ظهور سفن شاحبي الوجوه في الأفق البعيد للماء العظيم (المحيط الأطلسي). دعا زعيم الأرواح كافة زعماء القبائل ذات السطوة ليتحلقوا حول نار المخيم، ثم أمر العجماوات لإعداد مرابع المخيم، ولإحضار الحطب لإضرام النيران.

فقام الدب والبيسون(*) بجر ما ثقل من جذوع الأشجار، بينما قامت الرنة بتقطيعها بقرونها الحادة المدببة، أما الشره فكدسها بعضها فوق بعضٍ. حتى السنجاب بذل قصارى جهده ليمد يد العون، مهرولا في أنحاء الغابة وملتقطا كل غصن في طريقه، أما منظر الأرنب فكان مثيرا للضحك وهو يحمل العشب اليابس من البراري، متدليا من جانبي فمه كأنه ثعلب ماء تائه، أو متهدلاً حول ذقنه كلحية عنزة جبلية متعكرة المزاج.

لكن زعيم الأرواح احتفظ بالمهمة الكبرى لنفسه؛ إذ قام وهو جالس في مقامه في أعالي الغيوم بفحص كل حجر وقطعة طين جلبت إليه من كل ركن من أركان البلاد التي يسكنها الهنود، فاحتفظ ببعض ورمى بعضا، وأخيرا تنفس عميقا ونفخ، فتكسرت الحجارة والطين واستحالت غباراً ناعماً. وبعد أن غمس أصابع يديه مرات عديدة في البحيرات والأنهار أخذ

(*) البيسون: حيوان يعيش في أمريكا الشمالية وهو من فصيلة البقريات، ضخم الحجم، مسلح بقرنين صغيرين وله سنام صغير بين كتفيه.

زعيم الأرواح ينشد ترنيمة، بينما راحت يداه تصوغ البوق السحري أو القلموت.

وقبل أن تكتمل استدارة القمر بقليل أنهى زعيم الأرواح عمله وهبط إلى الأرض، وفي تلك اللحظة وصل رئيس قبيلة «داكوتا» المغوار، ولما عرف زعيم الأرواح وقف أمامه خاشعا.

قال زعيم الأرواح له: «لا تخف يا سيد الشجعان، بل تقدم نحوي».

«لقد أتيت بهذا البوق السحري هدية إلى موقد مخيمكم: سيتذكر كل كلمة تقال هنا اليوم، ومهما طال الزمن سيعيدها لكل من يطلب سماعها ثانية، لذلك أريدكم أن تتفوهوا بكل كلمة عن الدنيا وسننها، عن الإنسان والحيوان وعن أفعالهما. والآن خذ هذا البوق المقدس مني!».

وما إن أخذ الشيخ البوق، حتى تلاشى زعيم الأرواح كدخان بددته نسائم المساء.

وذهبت الشمس إلى مخدعها بعد أن أرسلت أخاها القمر لينوب عنها في السماء. ولما نشر القمر أجنحة ضيائه على البلاد، أضرمت نار في سهل تلتقي عنده البراري بالجبال والصحارى القاحلة بالغابات المكللة بالثلوج، وشبت النار وأنارت وجوه الهنود الأباة الحكماء بألق أشعتها الذهبية.

لقد كانت تلك حقا أكبر نار توقد في مخيم في بلاد الهنود، وقفزت ألسنة اللهب فوق قمم الأشجار وبدا بعضها كأنه يطاول عنان السماء. جلس رؤساء القبائل في حلقة كبيرة حول النار، فمن جاء من غابات الثلج الأزلي جاء مرتديا الفراء، ومحاربو

الجنوب رصعتهم الشمس بلونها البرونزي، وصيادو البراري زينوا رؤوسهم بزينة فاخرة.

بينما كان القمر يعبر بنعليه الرقيقين سماء الليل، كانت الأفواه تتداول القلموت، مسجلة فيه كل كلمة من الأساطير القديمة التي تحكى في مجالس الهنود.

وولد يوم جديد، انطفأت النار وتفرق الشيوخ عائدين إلى بيوتهم، وبقي البوق وحده.

ومنذ ذلك الزمان ورقائق الجليد تطفو على أنهار الشمال، والبراري أزهرت مرارا. جاءت حروب وولت حروب، وفي النهاية جاء شاحبو الوجوه وطردوا الهنود من مرابع صيدهم القديمة، وأطبق النسيان على البوق السحري؛ إذ ترك محطما في الغبار بجانب الطريق ولم يأبه به أحد.

وذات يوم كان صبي صغير يلعب على مقربة منه، فسحره منظر هذا الشيء الغريب؛ فأخذه إلى بيته، وهناك ظل ينظفه ويلمعه حتى بدا كما لو كان جديدا. إلى أن جاء المساء، وأضرم والد الصبي النار في الموقد الذي ملأه بكتل الصنوبر الأسود، وامتلأت الدار برائحة الراتنج وظلال الحكايات الأسطورية. كان البوق يرقد على الطاولة، والصبي يرمقه بعينين فضوليتين، تولد عنده إحساس أن الذي أمامه ليس بوقا عاديا، وبالفعل تحرك البوق فجأة كما لو كان يستيقظ من سبات طويل، ونفث حزمة من الدخان تكاد لا ترى، وأخذ يتكلم بصوت خفيض هادئ.

الليلة الأولى

الضوء الأول

قبل بداية الأسطورة الأولى، وهي أسطورة حكتها لي الحيوانات، كانت أمُّنا الأرض تغط في نوم عميق. كان الظلام يخيم على العالم ويلفه بأمواجه السوداء، ولم يعكر هذا السكون العميق أي صوت.

ولولا الغيمة البيضاء، لما استيقظت الأرض أبدا؛ إذ حدث أن فتحت هذه الغيمة عينيها، وعندما لم تر سوى الظلام، غادرت بيتها في الشمال وسافرت إلى الشرق ببطء، متلمسة طريقها بحذر.

لكن خطرا داهمها في الحال؛ إذ كانت غيمة سوداء مرعبة تجوس أرجاء الشرق لحماية السبات العظيم، وهذه الغيمة هي الوحيدة التي تقدر أن تخترق الظلام الدامس وهي في حالة تأهب مستمر، متربصة مترقبة أي حركة مريبة. وحالما رأت الغيمة البيضاء تشق طريقها عبر الظلام ومتعثرة في طريقها السماوي، استنفرت كقط بري وانقضت لتنزل العقاب بالمعتدي. واصطدما فوق بلاد الهنود بالضبط. انقضت الغيمة السوداء على أختها البيضاء وأمطرتها لكمة وراء لكمة، لكن الغيمة البيضاء لم تتقهقر بل صمدت في وجه الهجوم.

لا يعلم إلا «مانيتو» كيف يمكن لهذا اللقاء أن ينتهي، لكن في تلك اللحظة تماما حدث شيء غريب لا سابقة له: بينما كانت الغيمتان تقتتلان، أخذ العرق يتصبب منهما، فاتحدت حبات العرق معا حتى بدأت تمطر أخيرا.

وجلب المطر الحياة إلى بلاد الهنود، وخرجت الحيوانات من أوكارها تحت الأرض حيث كانت حبيسة السبات العظيم؛ فالماء المنهمر من السماء جعل خرقا في الأرض تسلقت منه جميع الحيوانات.

وبدا أن الجميع يستطيع أن يعيش بأمان وسعادة، فقسّموا مرابع الصيد بينهم من السهول الواسعة إلى الجبال، ومن الوديان إلى حدود بلاد الثلج. وقبل مضي وقت طويل كان كل مخلوق يبني بيتا له. لكن العالم ظل ينقصه شيء لم يره أحد من قبل: النور الذي حملته الأرواح بعيدا خلال السبات العظيم، مما جعل العالم يلتف بظلام مطبق.

لحسن الحظ ظلت بقية من الغيمة البيضاء الصغيرة في السماء. كانت متعبة جداً بعد معركتها الكبرى إلى درجة أنها كادت تعجز عن الحركة، لكنها نادت صديقتيها، الغيمة الزرقاء والغيمة الصفراء.

كانت الغيمة الزرقاء تسكن في أقصى الجنوب من العالم، بينما كانت الغيمة الصفراء تقيم في الغرب. استيقظت كل منهما وهرعت إلى الغيمة البيضاء بسرعة الريح.

«لقد استيقظت الدنيا من السبات العظيم»، قالت الغيمة البيضاء مُرحِّبة. «هذه الدنيا بحاجة إلى نور الآن، لهذا استدعيتكما لمساعدتي. تعاليا ننير بلاد الهنود».

قالت الغيمة الزرقاء محتجة: «لكننا سنتعب حالا».

فأردفت الغيمة الصفراء: «لا أعتقد أنني قادرة على البقاء في مكان واحد ولو للحظة واحدة».

«لا تقلقا! إن نورنا خافت ولن يرضي أحدا، سنطوف قريبا في السماء كيفما يحلو لنا».

لم تعترض صديقتاها بعد سماعهما هذا القول. نزلت الغيمات الثلاث إلى أخفض ما في وسعها، وسلّطت مصابيحها الملونة على الأرض بكل ما أوتيت من قوة. وهكذا أصبح في الدنيا أخيرا قليل من النور، لكن الحيوانات أدركت أنها الآن تواجه تحديا لا سابقة له: كيف تجلب النور الحقيقي.

من أتى بالشمس؟

في تلك الأيام، وكما رأينا، من قبل، لم تسطع على الأرض لا شمس ولا قمر. ولم يفلح أحد في عمل أي شيء بسبب الظلام. وحدها البومة استطاعت أن تنير دربها بعينيها.

وصار القيّوط هزيلا، فعلى الرغم من أنه كان يخرج للصيد يوميا، لكنه لم يستطع أن يصطاد أيا من الأرانب، ولهذا تعين عليه في نهاية المطاف أن يكتفي بما يصادفه من الجنادب كي يخفف آلام الجوع إلى أجل، ثم يجلس أمام وكره كسير الخاطر، يتطلع بعينين جائعتين. وفجأة سمع حفيف أجنحة جبارة، لقد جاءه النسر في زيارة، فحيّاه القيّوط بكل تبجيل واحترام، وقال:

«هذا شرف لم أكن أنتظره! أهلا بك يا أخي. أتمنى لو كان في اليد حيلة، لكن لا أملك ولو عظما منخورا. لقد هدّني الجوع وأكاد أعجز عن المشي، أما أنت فبأحسن حال بلا شك. كم أتمنى لو أستطيع الخروج للصيد معك!»

رازه النسر بعينيه وقال في نفسه: «لقد صار كالفزّاعة، لا شيء سوى الجلد والعظم».

«حسن، يمكننا أن نجرب». قال له. «لكن عليك أن تساعدني».

«طبعا، طبعا، أنا بإمرتك!» قال القيّوط، وحضن النسر بين يديه الهزيلتين حتى كاد يخنقه لفرط سروره.

وفي اليوم التالي خرجا سويا للصيد. حام النسر في أعالي

الجو، وما إن رأى فريسته حتى انقضَّ إلى الأرض. لم يمسك القيّوط شيئا، ولم يحاول، بل كان راضيا باقتسام ما غنمه النسر.

«لست بحاجة إلى مثل هذا المساعد عديم الفائدة»، هتف النسر. «إنك لا تكلف نفسك حتى عناء دفن العظام، بل تتركها متناثرة هنا وهناك».

«وماذا عساي أن أفعل؟ إن الظلام حالك إلى درجة أني لا أستطيع أن أرى طرف أنفي»، احتج القيّوط «إن ما نحتاج إليه هو النور».

«هذا صحيح» وافق النسر. «لقد سمعت أن في الغرب البعيد يختبئ ضوءان كبيران: واحد يدعى الشمس، والآخر يدعى القمر. دعنا نذهب إلى هناك، وأنا على يقين أننا سنجدهما».

وفي الحال انطلقا في رحلتهما. ومشى القيّوط وطار النسر في الجو حتى وصلا نهرا عريضا، صفق النسر بجناحيه وعبر النهر، وحط على الضفة الأخرى.

وبقي القيّوط مترددا أمام الماء العكر، لا يشعر بأي رغبة في القفز في الماء. لكنه فعل وظل رأسه يغطس تارة ويطفو على السطح تارة أخرى، وجحظت عيناه، بينما راحت يداه ورجلاه تصارع الماء دفعة واحدة.

وما إن لامس القاع الصلبة ثانية، حتى صاح بغضب:

«كدت أغرق وأنت تجلس هنا، وكأن شيئا لم يحدث. لماذا لم تحملني؟».

«ولماذا لا تستنبت لنفسك ريشا؟ لو كان لك ريش، لاستطعت أن تطير فوق النهر مثلي». ومسد النسر ريشه بعناية العاشق.

«أيها الغبي، ماذا كان بإمكانك أن تفعل لو كنت في مكاني؟» سأله القيّوط وهو يستشيط غضبا.

لكنه كان يعلم أنه ليس من الحكمة أن يزعج النسر، لهذا كف عن التذمر، ثم انطلقا ثانية.

وشيئا فشيئا أخذت الطبيعة حولهما تتغير، وأخذت معالم الهضاب المعزولة والمنحدرات تتضح أكثر فأكثر. كانا يقتربان من النور، وفجأة غيَّر النسر مساره، وراح القيوط يحوم أدنى فأدنى، وصعد القيّوط بسرعة إلى رابية منخفضة كانت تعيق رؤياه، فرأى في فسحة كبيرة - عند قدم الرابية - عددا من المخلوقات الغريبة تتقافز هنا وهناك وترقص وتغني، وكانت أجسادها مصبوغة بألوان قبيحة اقشعر لها جسده من الرعب.

«اهدأ»، حذره النسر، وهو يحط إلى جانبه. «هذه هي الأرواح الشريرة».

«هـ هـ هل سـ سـ ستؤذينا؟» قال القيّوط مترددا وهو يتلعثم، وأسنانه تصطك من الخوف. «لا داعي للخوف، فهي لا تعلم بوجودنا. هل ترى الصندوقين هناك؟» وأشار النسر إلى وسط الراقصين المعربدين، وكانت إحدى الأرواح الشريرة تفتح أحد الصندوقين بين الفينة والأخرى، فتخرج منه حزمة من الضوء تنير الفسحة بكاملها.

«ما هذا؟» سأل القيّوط.

«في أحد الصندوقين خبأت الأرواح الشريرة الشمس، وفي الآخر خبأت القمر»، قال النسر.

«وهل تعتقد حقا أننا سنتمكن من...؟».

«علينا الانتظار حتى تنام الأرواح الشريرة، وعليك أنت أن تكف عن ارتجافك المتواصل هذا».

وخبأ القيّوط رأسه بين يديه من شدة خوفه من الأرواح الشريرة.

وأخيرا توقفت الأرواح الشريرة عن الرقص بعد أن أعياها التعب، وسقطت الواحدة تلو الأخرى نائمة، وتعالت أصوات شخيرها حتى رددت الصخور صداها.

كانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها النسر والقيّوط، فانقض النسر على الصندوقين كالنشاب، فحملهما بمخالبه وتوارى بين الغيوم. وراح القيّوط يعدو بكل ما استطاع من قوة، كانسا الأرض بذيله.

لم يجرؤ على أن يلتفت حوله حتى بلغ قمة الرابية الأولى. لم يكن أحد يطاردهما، فالأرواح الشريرة كانت تغط في نوم عميق، ولم تكن على علم بما حدث.

تساءل القيّوط في نفسه: «ترى ما شكل الشمس؟ وما شكل القمر؟ لا بد أنه يمتاز بجمال خارق. يجب فعلا أن ألقي نظرة عليهما».

رفع رأسه ونادى على النسر:

«ألم تتعب بعد يا أخي؟»

لكن النسر اكتفى بالضحك، ثم نادى من عليائه:

«أأتعب من لا شيء؟ يمكنني أن أحملهما بسهولة إلى نهاية المطاف».

«آه، ولكن لا يليق بالنسر، سيد الحيوانات، أن يحمل أثقالا».

«لا عليك، فأنا لا أهتم بالرسميات».

«ولكن ما الذي سيقوله الآخرون لو رأوك تحمل كل هذه الأثقال؟ لا بد أنهم سيلقون اللوم علي في نهاية المطاف، وأنا واثق من ذلك، «ثابر القيّوط في إلحاحه، وراح يتضرع ويتوسل ويختلق سائر الذرائع عسى أن يستميل النسر فيدعه يحمل الصندوقين ويشبع فضوله.

«حسن، إذن»، قال النسر أخيرا، ثم وضع الصندوقين على الأرض. «لكن عليك أن تحرص عليهما أشد الحرص»، ثم حلق في الجو ثانية.

وعندما استراح النسر على قمة جبل قريب، لم يعد القيّوط قادرا على لجم فضوله، فرفع غطاء الصندوق الكبير رويدا رويدا.

«آه، ما أروع هذا!» هتف القيّوط. «أي دفء هذا؟ وأي بريق ذهبي؟ علي أن أدفئ يديَّ قليلا». ثم مد يديه داخل الصندوق.

«آخ، لقد احترقت!» صرخ فجأة، وفتح غطاء الصندوق من دهشته. وقبل أن يتمكن من تدارك الأمر، قفزت الشمس وبلغت السماء في طرفة عين. توسل إليها القيّوط لكي تعود، باسطا نحوها يديه المحترقتين، لكنها ظلت تصعد غير آبهة بتضرعاته.

«علي أن أرسل القمر ليعيد الشمس إلى هنا»، خطر له خاطر. وهكذا فتح غطاء الصندوق الآخر. لكن القمر لم يكن أرحم من سابقته، بل تسلق السماء وتوارى في ظل الشمس.

وراح القيّوط يذرع الأرض جيئة وذهابا، ويطوف حول الصندوقين الفارغين، منتظرا بخوف عودة النسر. وفعلا وصل الطائر الكبير في الحال ووبخه:

«انظر ماذا فعلت! فبدلا من النور الأبدي، سيكون هناك ليل ونهار يعقب أحدهما الآخر فقط لأنك تركت الشمس تهرب».

لوى القيّوط عنقه وهو يشعر بالذنب.

«أنا آسف، لم أكن أدرك...»، قال بصوت وديع. «لكن على الأقل لن تستطيع الأرواح الشريرة أن تستعيد الشمس أيضا».

«هناك شيء من الصحة في هذا»، أقر النسر. «لكن على أي حال، احتفظ بهذا الأمر لنفسك، لأنه لن يصدقك أحد».

صفق النسر بجناحيهِ مودعا، وطار نحو الجبال.

وانطلق القيّوط إلى مسكنه في المروج، يَصْفِر بمرح، ويتطلع يمنة ويسرة على نحو غير معهود. وهكذا، كما ترى، ولد اليوم الأول في بلاد الهنود.

أسطورة النار

نشرت الشمس أشعتها على بلاد الهنود قاطبة، لكنها لم تبلغ الوادي العميق، حيث كان يسود شتاء قاس، لم ينج من قبضته من الحيوانات سوى الدب بفروه السميك الخشن.

وفي إحدى الليالي هبت عاصفة مرعبة، كسرت الأشجار واقتلعتها، وحطمت الصخور، ودمرت كل شيء صادفته في طريقها. بينما كانت هناك شجرة جُمّيز وحيدة تنتصب في جزيرة صغيرة في وسط الماء العظيم؛ ظلت تتغنى بالصيف بلا مبالاة وتسخر من الطبيعة الهائجة، مما جعل العاصفة تغضب أكثر.

«سأقتلك!» صاح الرعد وهو يسدد ضربة مباشرة إلى قلب شجرة الجميز الباسلة.

ويا للعجب، فإن النشيد لم يتوقف حتى الآن؛ إذ نقلته النار في قلب شجرة الجميز إلى أمواج البحيرة، وهذه بدورها نقلته إلى الشاطئ، ومن هناك انطلق النشيد في كل الأرجاء.

في هذه الأثناء هدأت العاصفة. كاد الفجر أن ينبلج، وولت العاصفة شمالا، مخلفة وراءها الدمار، يرافقها الرعد الذي ظل يتطلع من حين إلى آخر إلى شجرة الجميز المصعوقة.

توقفت الشجرة عن النشيد، إذ أتت النار على جذعها وأغصانها، وارتفع عمود من الدخان الأزرق حتى وصل إلى كبد السماء.

وسرعان ما لاحظت الحيوانات في الوادي العميق الدخان.

حلق الصقر في الجو وسدد نظره باتجاه عمود الدخان.

«نار!» صاح من عليائه. «هناك نار في الجزيرة!»

«ما شكل هذه النار؟» سألت الحيوانات الأخرى.

«إنها حمراء وصفراء وتغني»، رد الصقر. «لكن هذا كل ما أعرفه عنها».

«النار صديقتنا»، قال العنكبوت. «إن جئنا بها هنا فستحيطنا بدفئها، هل تودون أن أذهب لآتيكم بها؟»

«ماذا؟ أنت!» سألته البومة باستخفاف. «إن أرجلك معوجة، وهذا يعني أن ذهابك وإيابك سيستغرقان مقدار نوم دب. سأذهب أنا».

نشرت البومة جناحيها وانطلقت باتجاه الجزيرة مسرعة، لكن تبين لها أن مهمة جلب النار كانت أصعب مما تصورت بكثير، فلما أمسكت بالجمرة الملتهبة، صرخت من الألم وسقطت منها، ولما سفعت النار ريشها رضيت من الغنيمة بالإياب، وحطت على غصن، كسيرة الخاطر، واعتذرت:

«لا تريد النار معاشرتنا، فهي لم تتنازل حتى للحديث معي، بل كادت أن تقتلني».

قالت الحية ذات الأجراس متبجحة: «إن جلدي درع متينة، سأذهب لأرى ما أستطيع فعله».

لكنها عادت أيضا، معلنة هزيمتها جراء ألم النار المحرقة.

«إن للنار قوى خارقة»، قالت للآخرين، معللة عودتها خالية الوفاض. «لم يبق في جلدي موضع إلا أذاقته حرقا حتى احمرَّ كله. لن يجبرها أحد أبدا على مغادرة جزيرتها».

«وهل نسيتموني؟» سأل العنكبوت. «فأنا أيضا لدي قوى خارقة، ومن يعلم، ربما أنجح في جلب النار. فأنا أعلم كيف أداريها».

لم يسخر منه أي من الحيوانات، مع أنها لم تصدقه؛ بل كانت تتساءل إن كان سينجز وعده.

لم يكن العنكبوت في عجلة من أمره. فأول ما فعله هو أنه جلب صرة كبيرة، ثم ربطها ربطا محكما، ثم حزمها على ظهره، وحينئذٍ انطلق إلى الجزيرة.

استغرقت الرحلة وقتا طويلا، إذ لاقى عنتا كبيرا بسبب أرجله المعوجة التي لاقت شتى أنواع الصعاب. وعندما ولج الماء تقاذفته الأمواج هنا وهناك، وكان شغله الشاغل أن يمنع سقوط الصرة من فوق ظهره وسحبه معها إلى القاع، لذا كان سروره عظيما عندما انتشل نفسه من الماء وبلغ الجزيرة.

بعد أن استراح قليلا، راح يعمل بجد، فاستخرج من صرته شريطا طويلا، وشيئا فشيئا استطاع أن يربط به أشد الجمرات توقدا، بينما كان يؤدي رقصة عنكبوت سحرية لكي يمنع الشريط من الاحتراق. ولما انتهى وضع كنزه الثمين في الصرة، وانطلق عائدا إلى رفاقه المنتظرين.

ولما كانت كل الحيوانات تنتظره بفارغ الصبر، فقد اجتمعت حوله، متلهفة لمعرفة ما آلت إليه رحلته. نفض العنكبوت صرته فقفزت النار منها، وقال:

«إن شجرة الجميز الباسلة منَّت علينا بصديق يؤنسنا بدفئه، حتى في أشد الأوقات صقيعا. لكن علينا أن نعتني به، ونطعمه لئلا تذهب حرارته».

«أرجو ألا يأكل كثيرا»، قال الهامستر(*). الذي كان يخشى أن يطلب منه التخلي عن مؤونته.

«لا تقلق، فالنار لا تأكل إلا الخشب اليابس»، طمأنه العنكبوت.

«حسن، ولكن الخشب رطب بسبب العاصفة».

«سأتبرع بلحائي للنار»، قالت شجرة البتولا، وهي تخلع قطعة كبيرة من اللحاء الأبيض عن نفسها، فأخذ السنجاب كسرة منها وعَرَّضها للنار. اندفع لسان من اللهب الأحمر والأصفر، وأخذ يتزايد ويطرد البرد بعيدا.

ومنذ ذلك الحين، لم تخمد النار أبدا؛ إذ كان السنجاب يرعاها نهارا، بينما كانت جميع الحيوانات تتحلق حولها مساء، وتنشد أغنية ترددها ألسنة اللهب أيضا لو استمعتَ جيدا:

برّاقة صافية تشب النار،
نتحلق حولها، ننصت بوقار
إلى أوراق تغني باستمرار
عن الدفء الأبدي،
عن صداقة النار.

(*) الهامستر: حيوان قارض صغير الحجم، قصير الأرجل والذيل أصهب الفرو، إلا أن الوبر الذي يغطي بطنه أبيض اللون.

الطوفان الكبير

ذات شتاء، عندما كان الكون في بداية شبابه الغرير، بدأ الثلج يهطل بغزارة وتوالى سقوط ندف الثلج من السماء، حتى اختفت معالم الأرض جميعها: فقد غطى الثلج الطرق المعروفة، وملأ الوديان، وأزال الأنهار من الوجود.

تحلقت الحيوانات حول النار داخل خيمة مصنوعة من الجلود لتتشاور فيما بينها حول خطة تستعيد من خلالها الطقس الدافئ، لكن لم يستطع أحد أن يصل إلى شيء، وأخيرا تكلم السنجاب:

«إن الليل يدنو، والنار توقفت عن الغناء لشدة تعبها. ليذهب كل منا إلى مخدعه، وسنكون قادرين على التفكير بصفاء أكثر في الصباح».

وفعلاً، ذهبت معظم الحيوانات إلى مخادعها، واستلقى السنجاب بجانب النار متوسدا يديه، تداعبه موجات النار الدافئة تارة، ودفقات الريح الباردة تارة أخرى، فرأى مناما غريبا:

رأى في منامه أن دبا، كالذي يعيش على الضفة الأخرى للبحيرة، كان يجوب العالم وبيديه كيس يضع فيه كل شيء يجده. وفي هذا الكيس، وضع الفطر والعسل، والطقس الجميل، وكان كل ما يتعين فعله هو مصادرة الكيس من الدب وفتحه.

وعلى عجل فرك السنجاب عينيه ليطمأن أنه لن ينسى حلمه.

«انهضوا جميعا». صاح السنجاب».إني أعرف من سرق الطقس الجميل منا».

حتى الغرير المعروف بقدرته على النوم في كل الأوقات استيقظ على صوت السنجاب، فاعتدل واستمع بانتباه.

«لقد رأيت الدب في منامي وهو يخبئ الطقس الجميل في كيسه»، صاح السنجاب بحماسة كبيرة «علينا أن نعدو وراءه لنمسك به».

اقترح الثعلب قائلاً: «دعونا نعبر البحيرة بالقارب».

اندفع الجميع من مسكنهم وجهزوا قاربهم، وانطلقوا فوراً.

وبدا وكر الدب مهجورا. انتظروا طويلا، وهم يسترقون السمع، لكن لم يكن هناك سوى الصمت في الداخل.

كان السنجاب أول من نظر في داخل الوكر، ولما رأى الكيس في زاوية، تماما كما رآه في منامه، صاح من الفرح ونادى الآخرين:

«تعالوا ساعدوني!»

كان الكيس ثقيلا جدا لا يستطيع أحد زحزحته سوى الرَّنة، التي التقطته ووضعته في قاربهم.

قال الثعلب: «لا بد أن الدب سيكتشف ماذا جرى وسيطاردنا».

«من منكم لديه أكثر الأسنان حدة؟»

«أنا، أنا!» صاح صوت صغير وحاد.

«أنتِ، أيتها الفأرة؟»

«نعم، أسناني أكثر حدة من أسنان الجميع»، قالت الفأرة باعتداد.

«حسن، اذهبي واقرضي بأسنانك مجداف الدب، لكن، حذارِ أن يراكِ وأنت تفعلين هذا!»

وشرعت الفأرة في عملها حالا، ثاقبة المجداف من مُتسعه.

«هيَّا، هيَّا!» صاحت الحيوانات الأخرى عندما سمعت الدب يقترب مزمجرا.

لم يكن لدى الفأرة الوقت الكافي لإنهاء عملها؛ إذ سرعان ما هرعت وقفزت داخل القارب، عندما سمعت وقع أقدام ثقيلة خارج الكهف. وما إن ابتعدت الحيوانات قليلا عن الشاطئ حتى سمعت زمجرة غاضبة. لقد اكتشف الدب السرقة.

«انتظروا حتى أمسك بكم،» صاح بخصومه. التقط مجدافه، وقذف بقاربه في الماء كما يقذف صدفة صغيرة، وراح يجدف بغضب، ويقترب من القارب الآخر مع كل ضربة من مجدافه. ضربة مجداف واحدة ويلحق بهم. في تلك اللحظة، تماما، انكسر المجداف كسرتين، وانقلب القارب، وسقط الدب في الماء وغرق.

كانت فرحة الحيوانات كبيرة، وعندما وصلت إلى منازلها على الضفة الأخرى للبحيرة حملت الرَّنة الكيس إلى الشاطئ وهناك فتحته بعناية.

قفز الطقس الجميل في الحال وراح يتجول في البلاد. ذاب الثلج بسرعة، وعم الماء كل مكان؛ إذ اجتمعت الجداول والأنهار لتشكل تيارا كبيرا راح يدك الوديان بفيض من الماء. وفاضت البحيرة، وراحت المياه تغمر كل شيء تلاقيه في طريقها، واحتمت جميع الحيوانات بقمة جبل عال، ظل وحيدا في مأمن من غمرة المياه.

وانتشر الطوفان وظلت قمة الجبل الوحيدة فوق الماء وتشاورت الحيوانات فيما يجب فعله، كانت تأمل أن تتراجع المياه تدريجيا، لكنها لم تفعل.

اقترح ثعلب الماء قائلا: «سأغوص إلى الأعماق وأجلب إليكم بعض التراب، وإلا هلكنا جميعا».

أخذ ثعلب الماء نفسا عميقا جدا، واختفى تحت الماء، ومضى وقت طويل ولما يعد. أخيرا ظهر على السطح، وبعد أن أرغى وأزبد قال:

«المعذرة، لكني لم أجد القاع. فليجرب غيري».

وتطوعت أرنب «البيكا»، وظلت في الماء وقتا أطول، لكنها لم تكن أكثر نجاحا من ثعلب الماء. ثم جاء دور البطة، التي غاصت كما لو كانت حجرة، وبدت الرحلة بلا نهاية، وكادت تقفل راجعة عندما لامست القاع فجأة، وغرفت من التراب بقدميها ما تستطيع، وعادت مسرعة إلى السطح.

وعلى الرغم من أنها لم تجلب الكثير من التراب، فقد عرفت على الأقل الطريق وقادت الآخرين إليه. وهكذا استطاعت الحيوانات في فترة وجيزة أن تخرج بلاد الهنود من تحت الماء، وعادت إلى مساكنها بعد أن انتصرت على الفيضان الكبير.

مجيء الهنود إلى هذا العالم

ربما ظننتم أني في هذه الحكاية عن بلاد الهنود نسيت أن أحدثكم عن الهنود أنفسهم. لكني في الحقيقة لم أنس. في قديم الزمان كان الهنود يعيشون فوق الغيوم، غير عارفين بما يجري في العالم الأرضي.

كانوا يملكون كل شيء يحتاجون إليه، وكان همهم الوحيد هو إيجاد غيمة جميلة، مستديرة، وثيرة، تهدهدهم للنوم من الصباح حتى المساء، ومن المساء حتى الصباح.

لكن البشر لا يقنعون بما لديهم، بل كان بعضهم لا يرضى بهذه العيشة الهادئة فوق الغيوم؛ فبدأوا يتساءلون لماذا لا تؤوب الشمس إلى مخدعها إلا ليلا. ترى ماذا تفعل طوال النهار؟

قرر «شاغدويغ»، أشد الهنود بأسا، أن يرسل مجموعة من الكشافة ليقتفوا أثر القرص المحترق، ثم دعا الصيادين للاجتماع، وقال لهم:

«سننصب شَرَكا كبيرا لنصطاد الشمس. قولوا لنسائكم أن يصنعن حبلا متينا من وبر الغيوم لنربط به الشمس».

إلا أن خطة «شاغدويغ» لم تلق استحسانا من كل الناس، فبعضهم لم يكترث حتى برفع رأسه عن الأوراق والكتب التي كانوا يكتبون، بينما عبر بعضهم الآخر عن تذمرهم من أفكار بعض الناس المخبولة ومضوا في طريقهم.

لكن شاغدويغ استطاع أن يجد بضعة مؤازرين وكان الكشافة قد عادوا يحملون البشائر.

كان مسار الشمس طويلا، ومن يتتبعه سيصل إلى نهاية السماء ذاتها. وهناك كانت تختفي داخل فتحة ضخمة تصدر منها رائحة حريق. كان هذا أنسب مكان ينصبون فيه شراكهم.

واستغرق نصب الشراك بين الغيوم سحابة يوم بكامله، إذ تبين أنه أصعب مما لو كان على الأرض، حيث كان يمكن تثبيته بحجر كبير، لذلك كان عليهم أن يجلبوا أكداسا كبيرة من الغيوم، ويطاردوا الرياح العابثة لئلا تحمل الشراك في طريقها.

وهكذا احتل الصيادون أماكنهم عندما كانت الشمس تقترب من الفتحة، وأخذت أشعتها تلفح الوجوه بعد أن كانت في البداية تداعبهم بلمساتها الحريرية الناعمة. وسرعان ما أصبحت حرارتها لا تُطاق، لكن أياً من الصيادين لم يبرح مكانه. واقتربت الشمس أكثر فأكثر.

ووقعت الواقعة، وشدت حبال الشرك بجلبة تصم الآذان، وانقض الصيادون بسرعة البرق، ووقع العملاق في الشرك قبل أن يدري ماذا جرى.

ولما عرف أنه وقع، غضب غضبا شديدا، وراح يجر الحبل وينفث ألسنة من اللهب في كل الأرجاء، لكنه بدا عاجزا.

وحض «شاغدويغ» محاربيه على مواصلة جهودهم، وجاءت النسوة والأطفال يتراكضون لمساعدتهم في شدِّ الحبل.

خرجت الشمس عن طورها من الغضب، واهتزت أركان السماء. هاقد انهار الشرك وبدأت المعركة تحتدم أكثر، فيسقط المقاتلون، ثم ما يلبثون أن يتدافعوا للوقوف على أقدامهم مرة أخرى، وتزمجر السماء كفرس المروج.

كانت بعض النفوس الجبانة لا تزال منزوية فوق أحد الغيوم، مختبئة وراء أوراقها، ممتقعة اللون من شدة الخوف. فجأة أمسك أحدهم بفأس وضرب بها السماء فجلجلت ولمع البرق، وارتمت الشمس والصيادون، وبدأوا يتساقطون نحو الأرض.

وتنفس ذوو الوجوه الممتقعة الصعداء، فالتقطوا أوراقهم واعتدل كل في جلسته المريحة فوق الغيوم، وبدأوا يقرأون كما لو أن شيئا لم يحدث.

في هذه الأثناء، كان شاغدويغ وأصدقاؤه يتدلون من السماء، متعلقين بالحبل الطويل الذي أرادوا أن يربطوا الشمس به، مقتنعين أن أجلهم قد حان.

إلا أن الشمس، ذلك المحارب الشهم، رقَّ لهم وقال:

«لقد استبسلتم في قتالكم، بالرغم من شدة الحرارة التي شوت جلودكم حتى احمرَّت. ولقاء ذلك، سأعطيكم بلادا تحمل اسمكم، اسم الهنود الحمر الأباة».

بينما كانت الشمس تتكلم، شعر شاغدويغ بأن الحبل ينخفض تدريجيا إلى أن نزل برفق بين الحشائش. وتبعه الآخرون، الواحد تلو الآخر.

ولما هبط آخر هندي إلى سطح الأرض، نهض شاغدويغ، الزعيم الأول، وألقى هذا الخطاب الخالد:

«إني أرى أمامي أجمل بلاد الدنيا، فاذهبوا وانصبوا خيامكم، وأوقدوا النار، وعاملوا بعضكم بعضا، وكذلك سائر المخلوقات، معاملة أشقاء. كلما أوقدتم نيرانا أكثر، أصبحت البلاد أشد كرما، وتمتَّنت روابط الأخوة بينكم، وزادت قوتكم. الويل لكم إن أنتم

تركتم النار تخمد: عندها ستستطيع مجرد حفنة من ذوي الوجوه الشاحبة الجبناء أن يخدعوكم بسهولة كما حدث من قبل».

حرص الهنود على تمثل هذه النصيحة الحصيفة لزعيمهم، فكانوا غالبا ما يرددونها لأبنائهم كما يرددون قصة استيطان الهنود لهذه البلاد. تناقل الأبناء كلام آبائهم جيلا بعد جيل، حتى أصبحت الحكاية أسطورة تتداولها الألسن عبر العصور، وها قد رويتها لكم بدوري.

ذلك الأثر الأبيض في السماء

لم يعد بإمكان أحد أن يتذكر بالضبط كيف استطاع الدب الأسود «واكيني» أن يتغلب على «واكينو»، ذلك الدب الرمادي الجبار. تقول الدببة السوداء إن «واكيني» كان يلتهم محتويات تلة نمل عندما أتاه «واكينو» وبكل فظاظة راح يغمس يديه في عشاء «واكيني»، مما أدى إلى قتال عنيف، تناثر فيه الوبر الأسود والرمادي في كل اتجاه. كان واكيني طبعا على حق، إذ لا يحق لأي حيوان أن يلمس فريسة حيوان آخر. لذلك لقي «واكينو» جزاء عادلا، لكن لم يكن هذا كل شيء، كان عليه أن يترك عشيرته إلى الأبد، شأنه شأن أي محارب مهزوم.

انتحب «واكينو» واشتكى، لكن قوانين الهنود لا محيد عنها. وهكذا تعين عليه أن يرحل، فخاض في الجداول التي عهدها، وألقى نظرة أخيرة على شجيرات السرو التي عرفها، وودع الوادي الذي عاش فيه طوال حياته.

ولما كانت دموعه المنهمرة تحجب الرؤية، لم يكن يدري أنه اتجه نحو بلاد الثلج، وفجأة سقط في جرف ثلجي عميق. تسلق خارجا بصعوبة، ومسح عينيه وألقى نظرة حوله. لم يكن هناك سوى الثلج الناصع في كل مكان.

«لا بد أنني سأجد قريبا أثرا لطريق»، قال الدب في نفسه، وانطلق في رحلته مرة أخرى. كان فروه الرمادي قد أصبح أبيض تماما من الثلج والصقيع والبرد القارس.

لكن واكينو لم يلحظ أي شيء، بل دأب على مواصلة السير حتى وصل إلى أرض غريبة يسودها ليل دامس، شديد البرد. كان صوت الريح لا يزال مسموعا عن بعد، لكن هنا لم يكن يسمع سوى وقع أقدامه على الثلج المتجمد.

وتألقت فوقه سماء الليل، وعلى مقربة منه، وبالتحديد على حافة بلاد الثلج والسماء، شاهد أثرا عريضا أبيض يصعد إلى السماء. وكان ركض «واكينو» يكاد لا يلامس الأرض مسحورا بذلك الأثر الساطع. وما هي إلا قفزة واحدة حتى وجد نفسه يرتقي الأجواء، نافضا الثلج عن فروه، وظل يتابع تحليقه بخفة الريشة.

ولأول مرة شاهدت الحيوانات، التي كانت يقظة في تلك الليلة، أثرا عريضا أبيض في السماء، يعتليه دب رمادي.

«لقد وجد «واكينو» بوابة الأرواح الموتى، وهو الآن في طريقه إلى مرابع الصيد الأبدية»، قال «واكيني» الدب الأسود الحكيم.

حقاً لقد ذهب الدب الرمادي إلى مرابع الصيد الأبدية، ولم يخلف وراءه سوى الثلج الذي نفضه من فروه. وهذا الثلج الأبيض موجود في السماء حتى يومنا هذا. انظر وشاهد بأم عينك.

يتحدث ذوو الوجوه الشاحبة عن درب التبان، لكن كل هندي يعرف أن ذلك هو الطريق إلى مرابع الصيد الأبدية، ذلك الطريق الذي سار عليه واكينو، الدب الرمادي.

ثعبان قوس قزح

كلما لاح قوس قزح في السماء، أدهشت ألوانه المتعددة كل من يراه وود لو يعرف مصدر جماله الخارق. لكن لا أحد يعرف السر سوى الهنود في الغرب، وهم يروون حكاية قديمة تفسر وجود قوس قزح في السماء.

حدث هذا في زمن اشتد فيه القيظ حيث خيَّم الهواء الساخن فوق السهول القاحلة، وجفت الأنهار والبحيرات، وراح الناس يحتمون بالظل ويتحسرون:

«وا حسرتاه، لا مفر لنا من الهلاك!»

«ولت جميع الطرائد بحثا عن الماء».

«هاجرت الأسماك إلى مصب النهر».

«حتى الورود لن تمن علينا ببذورها لنأكلها، فمآلها جميعا إلى الذبول والخواء». وسمعت حية صغيرة ذات حراشف حسراتهم، فخرجت من مخبئها، وكلمتهم بصوت بشري أدهشهم كثيرا:

«إني أملك قدرات سحرية عظيمة، وإني مستعدة لمساعدتكم، كل ما عليكم فعله هو أن تقذفوني في السماء».

لكن كاهن الهنود لم يصدق الحية، فهو يعتقد أنه وحده الذي يمتلك أعظم القدرات السحرية، ولذا قال للحية: «من المؤكد أنك ستسقطين وتموتين».

فردّت الحية: «لا، لن أسقط ولن أموت، سألتصق بالسماء بوساطة حراشفي، وبها سأكشط لكم بعض المطر والثلج، إذ إن المروج هناك مكونة من الجليد الأزرق».

احتج الكاهن ثانية: «ولكنك صغيرة جدا».

ردّت الحية: «بإمكاني أن أمتط على طول الأفق كله. هيَّا، اقذفني إلى أعلى ما تستطيع».

لم يرد الكاهن بل التقط الحية المتكورة ورماها بكل ما أُوتي من قوة في اتجاه السماء الصافية.

وفي أثناء رحلتها العلوية، راحت الحية تتحلل من تكورها وتزداد طولا بعد طول، إلى أن اتجه رأسها وذيلها في نهاية المطاف نحو الأرض، بينما تقوس ظهرها باتجاه الأعلى، كاشطة في أثناء ذلك الجليد الأزرق عن السماء.

وأخذ جلد الحية بالتبدل من أحمر إلى أصفر إلى أخضر وأرجواني. وذاب الجليد في السماء، ومرة أخرى استقبلت الأرض زخات المطر بالبشر والتهليل.

عادت الحياة إلى كل شيء، فامتلأت وديان الأنهار بالماء، وعادت الحيوانات إلى مواطنها الأصلية، وأزهرت الورود كالعادة. وماذا فعل الهنود يا ترى؟

رفعوا وجوههم نحو السماء، جاعلين المطر يتدفق عليها، وراحوا يرقصون تيمنا بالحية، التي أخذت منذ ذلك الحين تثني جسدها المرن كشريط ملون فوق الأرض كلما نزل المطر في يوم مشمس.

الأطفال الضائعون

كانت قطعان الجواميس تجوب الأرض طولا وعرضا لا يمنعها من ذلك شيء، لكنها كانت تتفادى خيمة معزولة بمحاذاة النهر، كما لو كانت البقعة التي تنتصب فيها مسكونة بالأرواح.

عاش في هذه الخيمة سبعة أولاد أشد فقرا من فئران المروج. لم يكن والدهم يغنم من الصيد إلا نادرا، وهكذا كان عليهم أن يكتفوا مرارا بالغناء والرقص بدلا من الطعام.

لم يكن لديهم ما يلبسونه أيضا، ففي حين كان الأولاد من القرية المجاورة يرتدون حلة جديدة من جلد الثيران مع مقدم كل ربيع، راح الصبية السبعة يتوارون عن الأنظار خشية أن يسخر أحد من عريهم.

ما كانوا يخرجون من خيمتهم إلا ليلا ليلعبوا بعض الألعاب علّها تنسيهم بطونهم الخاوية. كانوا يتسللون بهدوء من خيمتهم، شاقين طريقهم عبر المروج النائمة إلى مكان محمي أصبحت أرضه جرداء قاسية من كثرة الوطء. وفي أغلب الأحيان كانوا يشعلون النار قبل بدئهم اللعب ليطردوا البرد.

وبما أنهم قضوا نهارهم كله بلا مأكل، فقد كانوا يحاولون التعويض ليلا بإقامة مأدبة عظيمة، وما كانت هذه طبعا إلا مأدبة مزعومة لا أثر فيها للطعام. وكانوا يجثون حول النار المتصاعدة، تستحضر أخيلتهم صورا مغرية من لحم البيسون المشوي، الذي يسيل له اللعاب. وهكذا يبدأون الرقص حول النار إلى أن يرسلهم مقدم الفجر إلى النوم.

وهكذا مرت ليلة بعد ليلة، وظل الإخوة السبعة فقراء جائعين. كان كبير الأرواح مشغولا بكثير من الهموم الأخرى، نظرا لانشغال الهنود بالحروب، لذلك لم يخطر في باله ولو للحظة احتمال أن يكون أحد من أبنائه يقاسي.

ومع نهاية شهر العجل الأصفر، كان الصبية السبعة قد هزلوا وضعفوا إلى درجة أنهم رغبوا عن اللعب والرقص.

فحث الأكبر إخوته الستة: «هيا، انهضوا. دعونا نشعل نارا للتشاور، فلا بد أن تأتينا بفكرة تنقذنا».

لا أعرف كم من النيران اشتعلت في بلاد الهنود في تلك الليلة، لكني أعرف يقينا أنه كانت هناك واحدة تشتعل على حافة المرج، وأنه كان سبعة أولاد يتحلقون حولها. ومضى وقت طويل وهم لا ينبسون ببنت شفة، ثم تكلم الأصغر بصوت رزين قائلاً:

«هذه الدنيا لا خير لنا فيها، وربما يكون من الأفضل أن نغادرها، دعونا نتغير إلى طين مثلا، عندئذ سنكون في أمان ولا ينقصنا شيء».

لكن الأخ الثاني اعترضه: «لا، فالطين لا حياة فيه. من الأفضل أن نتحول إلى صخر».

«لكن الصخر قابل للانكسار»، اعترض الثالث. «من الأفضل أن نصير أشجاراً ضخمة».

لكن الأخ الرابع كانت لديه فكرة مختلفة:

«لكن البرق قد يقصف بنا. فلنتحول إلى ماء. عندها سنكون آمنين، ولن يستطيع أحد أن يؤذينا».

«هل نسيت الشمس؟» سأل الأخ الخامس. «إن شاءت، تستطيع أن تجفف أي بركة أو نهر. دعونا نتحول إلى ليل، فالليل كان دائما ملاذنا».

وراقت لهم هذه الفكرة، وكانوا على وشك أن يتفقوا لكن الأخ السادس أوقفهم بقوله:

«لا، حتى الليل لا يملك القوة كلها، فهو دائما يتلوه النهار فيحيله عدما. أعتقد أنه من الأفضل لو صرنا النهار وليس الليل».

وبعد أن صمتوا هنيهة تكلم الأخ الأكبر:

«كما تعلمون، النهار لا يدوم أيضا، لا خلود إلا للسماء الزرقاء. لكننا لا نستطيع أن نصبح السماء الزرقاء، فواحدة تكفي الهنود. لكن هناك أشياء جميلة في أعالي السماء تدعى النجوم، وأنا متأكد أنها سترحب بنا وتقبل بوجودنا بينها بكل سرور».

بعثت هذه الكلمات الحكيمة المسرة والبشر في قلوب الصبية. نعم، كان هذا هو الجواب على أسئلتهم الحيرى. سيصيرون نجوما.

قذفوا بما تبقى لديهم من حطب على النار فتأججت وتوهجت، باعثة الضياء في كل أنحاء الفسحة.

كان هذا ما ينتظره الإخوة السبعة. وقفوا على أقدامهم، وتشابكوا بالأيدي، وأخذوا يرقصون رويدا رويدا.

وبدا أن إرهاقهم أخذ يتلاشى مع كل خطوة، وراحت أرجلهم تبرق أسرع فأسرع، وما كانوا يتوقفون. لم تعد أقدامهم تلامس الأرض الآن، فارتفعوا على شكل دائرة نحو الأعلى، وأيديهم لا تزال متشابكة. وانطفأت النار التي خلفوها وراءهم على بعد سحيق، بينما هم يواصلون مسيرتهم العلوية نحو أثر «واكينو» الأبيض.

وتمتد السماوات المتلألئة بالنجوم اتساعا فوق بلاد الهنود.

الآن وقد لفتهم سماء الليل بآيات من روعتها، توقف الإخوة السبعة عن الرقص ونظروا حولهم مندهشين، فرأوا سبع خيام عجائبية بدت كأنها في انتظارهم، فعدى كل صبي نحو كوخه.

وفي الداخل كانت تنتظر كل واحد منهم مفاجأة؛ فعلى جدران الأكواخ، وعلى أرضها، وفي كل مكان تراه العين، تجد روائع لا تحصى، فوقف الإخوة السبعة مندهشين أمام روعة الثروة المهيبة، الموضوعة في خدمتهم. كانت هناك ملابس جديدة رائعة التطريز، وعمامات براقة تليق بالزعماء، وأحذية غاية في الروعة، ناهيك عن تلال المآكل الفاخرة.

ولبس كل صبي ملابسه الجديدة بسرعة وانطلق خارجا من كوخه ليتباهى أمام إخوته بما جَدَّ له من حظ.

وكانت هناك مفاجأة أخرى في انتظارهم: كانت كل ملابسهم متشابهة تماما، ينطلق منها ألق ذهبي يبهر الأبصار، فنظر كل منهم إلى الآخر بذهول عظيم، متسائلاً عما حدث، لكن الأخ الأكبر اهتدى إلى الجواب عن السؤال الذي لم ينطقوا به، فقال لهم:

«لقد لبى كبير الأرواح أمنيتنا، نادانا إليه وأصبحنا نجوما».

وهذا ما كان حقاً. ومنذ ذلك الزمان، وكلما أتى الخريف واكتست صغار الجواميس لونا بنيا، يجتمع الأطفال في بلاد الهنود ويتطلعون نحو السماء ليحصوا الإخوة الضائعين في مجموعة الثريا، لكنهم نادرا ما ينجحون في محاولتهم هذه، لأن كوخ الأخ الأكبر ينتصب فوق أكواخ البقية فيضيع وهجه في عظمة المسافة التي لا تقدر.

النيلوفر الأبيض(*)

قبل أن تدق طبول الحرب في بلاد الهنود، كانت هناك قرية جميلة تقوم على حافة المرج. كان الرجال يغدون مع كل صباح للصيد ويعودون مساءً بغنائم دسمة، بينما كانت النساء يحضرن الطعام ويخطن الثياب، أما الأطفال فكانوا يمضون أوقاتهم في اللهو من مطلع الشمس إلى مغيبها. كانوا جميعا سعداء قانعين، بل أسعد من أي إنسان في الدنيا.

كانت الشمس تطيل إشراقها في العصاري، متبسمة للرجال الحمر، وكان المطر لا يهطل إلا عندما تحتاج الآبار والأنهار والبحيرات إلى مؤونة جديدة من الماء العذب، أو لينعش الأشجار والأزهار.

والآن استمع لما حدث: لم يمض وقت طويل على النجوم التي تتلألأ فوق المخيم حتى علمت بوجود الهنود، ولما كانت مصابيحها صغيرة بحيث يتبدد ضوؤها قبل وصوله إلى الأرض، توسلت النجوم إلى زعيمها طالبة منه أن يسمح لها بزيارة القرية.

كان القمر زعيم السماء ليلا، وما كان يريد لرعيته أن تتسكع هنا وهناك أو تأوي إلى فراشها متأخرة كنجمة الصبح. وكلما فعلت الرعية ما لا يرغب فيه زعيمها، حصلت خلافات بينه وبين الشمس. لكن في تلك الليلة كان القمر في مزاج رائق قل له مثيل، فلبى طلب النجوم. واستعدت هذه للرحلة بسرعة، وراحت

(*) النيلوفر: نوع من الأزهار التي تنمو على سطح الماء حيث تمد عليه أوراقها الكبيرة، يوجد في المناطق ذات المناخ الحار أو المداري.

تتضاحك وتثرثر مما جعلها لا تنتبه إلى المشورة الحكيمة التي أسداها لها القمر:

«لكم أن تذهبوا أينما شئتم، لكن حذار أن تلمسوا الأرض. إن أنتم فعلتم ذلك، بقيتم هناك، وستميتكم الشمس حرقا في اليوم التالي، لأن سهامها تحمل الموت لنا».

وتجولت النجوم في طول السماء وعرضها، وكان من حسن حظها أن القمر مكتمل في تلك الليلة، ولولا ذلك لضلت طريقها لا محالة. وأخيرا وصلت إلى القرية الهندية وراحت تتفحصها من كل الجوانب وهي حائمة فوقها. كان الهنود نائمين باستثناء صبي صغير يسكن في أطراف المخيم، فلدى سماعه صوتا غريبا هامسا فوق رأسه، أنصت جيدا ثم نظر من خلال فتحة الخيمة العلوية. وكادت نبضات قلبه أن تتوقف لما رأى ما رأى من نجوم جمة على مسافة قريبة، قريبة جدا. فتسلق إلى أعلى الخيمة وأزاح العمود لكي يرى بشكل أفضل، لكن العمود علق بشيء فارتطم، وإذا بأصغر النجوم وأكثرها فضولا تهوي أرضا. كانت تمر في تلك اللحظة على علو منخفض فوق الخيمة، والآن سقطت على الأرض وانقلبت في الحال إلى فتاة جميلة تنتحب.

«تأمل ما فعلته يداك»، قالت موبخة الصبي. «لا أستطيع الآن العودة مع أخواتي، ومع قدوم الفجر ستكتشفني الشمس وتقتلني بسهامها».

وحدق الصبي فيها مذهولا. في هذه الأثناء، درت النجوم الأخرى بما جرى وطارت عائدة إلى موطنها مذعورة، وهي متيقنة أنه ليس بوسعها أن تفعل أي شيء لمساعدة أختها القليلة الحظ.

تدفقت الدموع على وجه الصبية الجميل مما جعل الصبي يشفق عليها، فقال لها:

«سأساعدك، سأغلق باب خيمتي أثناء ظهور الشمس في النهار، وهكذا لن تستطيع أن تراك. لكن ماذا سنفعل بعد ذلك؟»

«لو أستطيع أن أحيا هذا اليوم فقط، فسأتحول إلى زهرة في المساء، وسأذهب لأعيش على قمة جرف شاهق، حيث يمكنني منه أن أراقبك وأراقب أهلك، فأنا أحب طريقة عيشكم معشر الهنود».

ونفذا ما اتفقا عليه بدقة. لازم الصبي بيته في ذلك اليوم، محترسا كيلا تتسلل إلى الخيمة حتى أدق الأشعة صغرا أو أكثرها فضولا. وحالما ولى النهار، تسللت الفتاة عبر منفذ الدخان وأسرعت إلى جرف عالٍ. وهكذا شهد صباح اليوم التالي مولد زهرة بيضاء جميلة على قمة ذلك الجرف.

كان الهنود جميعا معجبين بالزهرة عن بعد، لكن الصبي هو الوحيد الذي كان يعرف حقا أنها لم تكن سوى النجمة التي آواها في خيمته، وحماها من أشعة الشمس القاتلة.

وسرعان ما بدأت الفتاة تشعر بالوحدة في موطنها في الأعالي. فمع أنها كانت قادرة على أن تحدق بنظرها في البلاد البعيدة وتراقب الحياة في المخيم، إلا أنه لم يكلف أحد نفسه عناء تسلق الجرف الشاهق ليحادثها. كانت الطيور المعششة بجوارها تطير إليها أحيانا لتؤنس وحشتها.

وفي أحد الأيام جاءتها نمنمة صغيرة لتحادثها، فاشتكت إليها الزهرة البيضاء:

«أنا وحيدة جدا هنا. إني أحن إلى رفقة بني البشر. كل ما أتمناه هو أن أستطيع العيش هناك في المرج».

فردت النمنمة الصغيرة بلطف جم: «إذا كان هذا ما تتمنين، فيمكنني أن أساعدك بسهولة. فقط احنِي رأسك قليلا كي ألتقطك بمنقاري».

وحنت الزهرة رأسها طائعة، فالتقطتها النمنمة بمنقارها وطارت بها إلى المرج. كانت الحياة هناك أكثر بهجة بكثير. جاء الهنود وجميع الحيوانات المختلفة لتروي الأخبار إلى الزهرة البيضاء. لكن ذات صباح سُمِعَ صوت جلجلة عميقة من بعيد، فصرخ الجميع: «هيا أسرعوا، أسرعوا. علينا أن نختبئ، الجواميس قادمة». وركض الجميع واختبأوا في مكان آمن. وفي الحال لاحت غيمة كبيرة من الغبار في الأفق، وأخذت تتزايد بتزايد الزمن، وارتعدت الزهرة البيضاء من الخوف، وخبأت رأسها تحت أوراقها التي اتسعت نحو الخارج من شدة الهلع. ومرت القطعان كأنها إعصار، يصحبه رعد آلاف الحوافر.

وعندما ساد الهدوء مرة أخرى، اختلست الزهرة البيضاء النظر من تحت أوراقها التي كانت تحتمي بها، وهي خائفة، فإذا بالمرج قد دُمِّر، وأصبح خالياً من أسباب الحياة.

فقالت النجمة لنفسها: «يجب ألا أبقى هنا وأعرض نفسي لمثل هذا الخطر المرعب، من الأفضل لي أن أكون في البحيرة».

وما إن انتزعت نفسها من الأرض حتى رأت تحتها سطح البحيرة يتلألأ، ثم انسابت برفق فوق الماء مثل قارب هندي.

ولما انطلق الهنود في صباح اليوم التالي نحو البحيرة فوجئوا بأزهار بيضاء جميلة تطفو على سطحها، فقال الأطفال الصغار: «لقد نثرت نجوم السماء زهوراً». لكن الشيوخ الحكماء هزوا رؤوسهم وقالوا: «إنها النجمة البيضاء، جاءت لتعيش معنا». وكانوا طبعا على حق.

ومنذ ذلك اليوم والنجمة تعيش على سطح البحيرة على شكل نيلوفر أبيض، ويدعوها الهنود و«هبغ واني»، أي الزهرة البيضاء.

الداء والدواء

عاشت الحيوانات والبشر في وئام، لا يعترض أحد طريق الآخر، وظلت الحال كذلك إلى أن بدأ بعض الهنود الجشعين بقتل الحيوانات البرية بقصد بيع لحمها وفرائها لا أكثر.

أخذت أعداد القنادس وثعالب الماء والظباء والجواميس والبيسون تتناقص بسرعة، فدعا الدب الأبيض جميع الحيوانات ذات يوم من أجل التشاور، لكنها لم تتوصل إلى اتفاق حول أفضل وسيلة تنتقم بها من بني الإنسان.

نادت الدببة بشن الحرب عليهم، وأحضرت العدة من قوس ونشاب، لكنها وجدت أن مخالبها الطويلة حالت دون إطلاق السهام بصورة صحيحة. واقترحت الطيور سرقة خيام الصيادين الأشرار، واكتفى القندس باقتراح خرق أرضية قواربهم.

أما الذباب فقد أعطى المسألة ما تستحق من تأمل، غير منقطع في أثناء ذلك بالطنين المحموم داخل جذل شجرة أجوف قريب. وعندما عجز الآخرون عن تقديم أفكار جديدة، نهض أكبرهم وأحكمهم، وهو يستند على عكازه، وخاطب جموع الحيوانات:

«سنطلب من الأرواح أن تنزل المرض بالهنود الذين يؤذوننا، ونتعهد نحن الذباب بنشر هذا المرض».

وافق الجميع على هذا الاقتراح، وأعلن الدب الأبيض انتهاء المؤتمر. وتفرقت الحيوانات، كل إلى مسكنه، متسائلين عما سيحدث بعد ذلك.

وقبل مضي وقت طويل صدقت نبوءة الذباب، وحضر المرض إلى قرى الهنود. لكنه لم ينتق ضحاياه، بل هاجم كل من صادفه في طريقه؛ فتوقف الصيد، وبقي الهنود في خيامهم يعانون المرض والجوع، لا فرق في ذلك بين طيب وخبيث.

وحزنت الحيوانات لهذا، لأنها لم تقصد أن يضرب المرض كل الهنود. وراحت تفكر فيما يجب فعله، وتساءلت فيما بينها طلبا للمشورة.

إلا أن النصيحة جاءت من مصدر غير متوقع: من الأعشاب.

«إننا نملك قوى شافية»، صاحت الأزهار في القرى والمروج «سنشفي المرضى حالا».

وانطلق الهنود من خيامهم ليجمعوا الزعتر البري وحشيشة القنطريون وأوراق الفراولة وجذور السرخس الشافية، وكل أنواع الأعشاب، أملاً في الشفاء. وعندما كانوا يحارون فيما يختارون من بين الأدوية لشفاء مرض بعينه، كانت الأرواح الصغيرة اللطيفة المختبئة في الزهور تهمس لهم وتخبرهم.

وهكذا جرى اكتشاف الطب، ووجد ذوو الوجوه الحمراء أن كل شيء في الطبيعة، مهما صغر حجمه، نافع لهم.

الهندباء البرية

كثيرا ما تساءل أطفال الشمال عن سبب قصر إقامة «شاونداسي» (ريح الجنوب) معهم، وعن عدم مطاردته لريح الشمال، «كابيبونوكا»، حتى مضارب أهله، إلى أرض الجليد في أقصى الشمال. فما أروع الاستمتاع بصيف يدوم على مدار السنة! لكن حكماءهم فسروا السبب على النحو التالي:

«إن «شاونداسي» بدين وكسول، وكل ما يفعله هو الاسترخاء والتدخين. وبهذه الطريقة لا ينجح إلا في طرد حزنه وليس «كابيبونوكا»».

استفسر الأطفال: «وعلام تحزن ريح الجنوب؟»

فرد أحد الكبار: «علام تحزن؟ أنا سأروي لكم ما حدث».

«كلكم يعلم أن «شاونداسي» يجلب الصيف؛ ففي قديم الزمان، عندما كان شاونداسي لا يزال شابا، تطلع نحو الشمال عبر المروج مصوبا نظره باتجاهنا، كان الجو يعبق بأريج الصيف وأغاني الطيور، وكانت السماء زرقاء صافية، كان يوما رائعا».

فجأة رأى فتاة جميلة على مسافة بعيدة، كانت تقف وحيدة بين الورود، كأنها غصن من أغصانها، وكان شعرها يلصف إلى درجة تبهر الأنظار.

«وراق «لشاونداسي» مطلعها كثيرا، لكن لا تظنوا أبدا أنه كلف نفسه عناء الذهاب إليها. كان كسولا جدا، حتى في تلك الأيام التي خلت. كان كل ما يفعله هو أن يقف محدقا فيها حتى تكاد

عيـونه أن تخـرج من مـحـاجـرها. وكلمـا أفـاق من نومـه أدار رأسـه نحـو ذلك المرج ليمتع ناظره بذلك المرأى الجميل. وأخيـراً وقع في غرام تلك المخلوقة السـاحرة. وكثيرا ما راودته نفسه في أمر رحلة يقوم بها بحثا عن مـحبوبته، التي ما كانت تغيب عن ناظره أبدا، كأنها حلم يقظة جميل. لكن كسله كان دوما يتغلب عليه فيخر نائما. ودارت الأيام ودفع ثمن كسله غاليا».

«ذات صباح نظر نحـو الشمال، فإذا بالشعر الذهبي الذي طالما هام به قلبه صار كالفضة، كأن شيبا صقيعيا كساه كله».

«طبعـاً، راحت ظنونه في الحـال تحوم حـول «كابيبونوكا»، وكـان مـحـقـا في ذلك، إذ استطاعت ريح الشمـال أن تستميل قلب الفتاة إليها بحكايات السمر التي كانت ترويها لها، فقيدتها بأربطة من صقيع وكسى شعرها صقيعا أشيب».

«وراح شاونداسي ينتحب ويندب حظه، نادما أشد الندامة على تقاعسه، وأطلق زفرة تلو الأخرى، حتى بلغت زفراته الحرّى أركان الدنيا القصية».

«ثم هبت عـاصفة ثلجية فـوق المرج، وشوهد شيء أبيض كالثلج يرفرف طائرا في الجو. أما الفتاة، فقد اختفت إلى الأبد».

«كيف ذلك؟ كيف تختفي؟» ألح الأطفال في استفساراتهم.

فرد العجـوز مبتسما: «انصتوا وسأروي لكم ذلك. لم تكن هناك فـتـاة تقف في المرج، بل كـانت وردة هندباء صـفـراء. وبما أن «شـاونداسي» لم يكن كسولا فحسب، بل قليل الإدراك أيضا، فقد فـاته أن ينتبـه إلى هذا الأمـر، وزيّن له خيـاله الزهـرة على هيئـة فتاة. إذن، كل مـا هنالك أن الهندباء فقدت وردتها الذهبية، ومن

هنا تراءى له الشعر الفضي. ولما كانت ريح الجنوب تظن «بكابيبونُكّا» سوءا، أخذت تطلق الزفرات تباعا حتى تبعثر زغب الهندباء في طول المرج وعرضه. بعد هذا أصبح البحث عن الفتاة الجميلة بطبيعة الحال عبثا لا طائل منه. إذن، يقع اللوم كله في الحقيقة على «شاونداسي»، لكن لا يمكن أن تتوقع من كسول مثله أن يكلف نفسه عناء التفكير ليصل إلى حقيقة الأمور. وعندما يخيم الحزن على البلاد في نهاية الصيف، لا أحد يعلم سوى الهنود أن «شاونداسي» هو من يطلق زفرات الأسى مرة أخرى شوقا لمحبوبته، التي ليست سوى واحدة من بنات أفكاره».

شيبة السيدة العجوز

كانت الذرة طعام الهنود منذ أقدم العصور، ولم يعرفوا القمح أبدا، لذلك كانوا يستخدمون دقيق الذرة في خبزهم وفي حلوياتهم. وهناك أسطورة هندية جميلة عن أصل الذرة.

في يوم من الأيام سافرت امرأة عجوز وحفيدها في بلاد الهنود. لم يكن أحد يعرف من أين أتت أو أي وجهة تقصد، ولم يدعها أحد لتتدفأ بناره، مع أنها طلبت وتوسلت أن يسمحوا لها بذلك. حدث هذا في زمن كانت جميع قبائل الهنود تقريبا تقتتل مع بعضها مستخدمة فؤوس «التوماهوك» الهندية، لذلك كان يُشتبه بكل قادم جديد على أنه جاسوس للعدو.

فقالت العجوز لحفيدها: «لا تقلق أبدا، أنا متأكدة أننا سنجد أناسا طيبين، وسيحيطوننا برعايتهم».

وواصلا طريقهما عبر الجبال والمروج حتى وصلا ذات يوم إلى مخيم قبيلة التماسيح. كانت هذه القبيلة الهندية فقيرة، لكن طيبة القلب، فدعت العجوز وحفيدها أن يقتربا من نارها وقاسمت ضيفيها طعامها القليل، ثم تحدث زعيم القبيلة المدعو سن التمساح، قائلا للسائحين:

«يمكنكما البقاء معنا إن شئتما ذلك، لكن يجب أن تعرفا أننا غالبا ما نعاني المجاعة. ومرابع صيدنا ليست غنية بالطرائد، وعلاوة على ذلك علينا أن نقدم أفضل صيدنا قربانا للتماسيح لئلا نثير سخطها علينا».

«سنقاسمكم حظوظكم أيا كانت بكل سرور»، ردت العجوز.

«ولقاء كرمكم سأعتني بكل الأطفال حتى لا أكون عديمة الفائدة أبدا».

وهكذا مع إشراقة اليوم التالي، غادر جميع الصيادين المخيم وتبعتهم بعد ذلك بقليل نساؤهم، ولم يبق في المخيم سوى الأطفال الصغار.

صحيح أن الأطفال قد اعتادوا الوحدة خلال النهار، واستمتعوا بلعبهم سوية، إلا أنهم كانوا يظلون من دون طعام حتى المساء عندما يعود آباؤهم وأمهاتهم ومعهم ما يمكن أكله.

أما الآن، فقد اختلفت الأشياء فترى الأطفال يتجمهرون حول العجوز، كما تتجمهر الصيصان حول دجاجة عجوز، ليستمعوا إلى حكاياتها.

فقد عللت للأطفال الأسباب التي جعلت الأعشاب القصيرة الغضة تغطي الأرض وكذلك الأشجار السامقة، فقالت: في يوم من الأيام، أراد «مانيتو» الجبار أن يداعب تلك الزهور التي كانت تهفهف النسائم الخفيفة على أعوادها المشوقة، إلا أنه وجد أنه لا يستطيع أن يلامسها من عليائه في السماوات. كانت هذه الزهور بعيدة المنال، لذلك تمنى أن تنمو أعوادها حتى تلامس راحة كفيه. ومنذ ذلك الحين وأشجار الصنوبر الهيفاء والتنوب والقيقب تخرج من الأرض وتظل تنمو حتى تلامس السماء بتيجانها المهيبة. وما على «مانيتو» الآن إلا أن يمد يده ليداعبها ويبهج قلبه بملمس تيجانها وهي تميس برفق وتهمس برقة.

لم تكن العجوز راوية قصص بارعة فحسب، بل كانت تعرف بدقة متى يجوع الصغار، وآنذاك تغيب عن الأنظار هنيهة ثم تعود بقدر ضخم تفوح منه رائحة غريبة شهية، ثم تقول:

«هذه عصيدة ذرة، وسأعطيكم منها كل يوم إن أنتم تصرفتم بلباقة وأطعتم ما يقال لكم».

وهكذا مضت الشهور، حتى جاء الشهر الأخير، شهر الليل الطويل، وولى. كانت العجوز تواظب على إعداد عصيدة ذرتها الشهية للصغار، إلا أنها في الفترة الأخيرة بدأت تذوي رويدا رويدا، كأنها بخار ينطلق من قدر فيتلاشى ببطء.

ولما عجزت ذات صباح عن النهوض من مخدعها، نادت حفيدها وقالت له:

«أنا أعرف يا عزيزي أنني سأغادر هذه الدنيا وأهلها قريبا، لأن حبات الذرة التي زرعتها خارج المخيم نمت جذورها وستتفتح أوراقها في الربيع، لقد أديت واجبي، والآن تقع على عاتقك وعاتق بقية الأطفال مهمة سقايتها وعنايتها وتعشيبها. ولا حصاد إن لم تفعلوا».

كان هذا آخر ما نطقت به العجوز من كلمات، وظلت تعطي حفيدها كل يوم عند الظهر قدرا من عصيدة الذرة، لكنها في اليوم الذي نضج فيه أول كوز من الذرة خارج خيمتها اختفت إلى الأبد مع أنهم فتشوا عنها في كل مكان.

قال سن التمساح: «لن نراها ثانية. مع ذلك لن تفارقنا أبداً. انظروا»، وأشار بيده إلى الذرة المحيطة بمخيمهم. «لقد حولت نفسها إلى هذه النباتات التي أتتنا بها كيلا نجوع أبدا».

وهكذا ردت العجوز للقبيلة جميل ضيافتها. ومنذ ذلك التاريخ تجد الهنود يعتنون بحقول الذرة لديهم عناية فائقة، وعندما تنبت الشعرات البيضاء على أكواز الذرة الخضراء يرون فيها شيبة العجوز التي لن ينسوها أبدا.

هدية الطواطم

في الأفق البعيد وراء الجبال الأربعة والأنهار الأربعة وعلى شواطئ محيط لا حدود له، كانت تنتصب قرية الطواطم، وجاءت تسميتها هذه لأن وراء كل خيمة كان يقوم عمود طوطم طويل ممشوق لحماية الهنود أثناء إبحارهم لصيد الحيتان.

كان الصيادون يعتقدون أن هذه الأعمدة المنقوشة والمزركشة بالألوان تساعد على رد البلاء، ولذا فهم يكنون لها احتراما كبيرا، وكلما عادوا من رحلة موفقة، أقاموا مأدبة عظيمة على شرفها.

وفي إحدى الليالي، وقبيل إقامة مأدبة من هذا القبيل، نام غراب في شجرة قريبة من بيّارة الطواطم، ويبدو أنه رأى أحلاما مزعجة أو شعر بالبرد، لأنه استيقظ فجأة في منتصف الليل. ولما أنصت وسط الظلمة، محاولا معرفة السبب الذي أقلق نومه، سمع أصواتا غريبة خافتة كمناجاة الأغصان لبعضها عندما تداعبها الريح. ولما مد الغراب رقبته قليلا، أصبحت الأصوات أكثر وضوحا. لم يخطئ الظن، فالطواطم الخشبية فعلا تتحدث.

«ما رأيكم، يا كبير الطواطم؟»

«علمت من روح سمك القد الأكبر أن الهنود على وشك أن يتلقوا هدية، وأن هذه الهدية ستكون معدنا. نعم، معدن أصفر يلمع كالذهب. فهل حقا ما سمعت، يا شيخ الطواطم؟»

«لقد أسرت لي روح الرَّنكة الحكيمة أن هذا المعدن يجب ألا

يكون بقساوة الذهب، لأنه سيجعل قلوب الرجال الحمر قاسية. فهل تتفقون مع هذا الرأي، يا أحكم الطواطم؟»

«أجل، فقد علمت من روح الحوتة الأم أن من هذا المعدن سيصنع الهنود رؤوسا لسهامهم، ورماحهم، وحرابهم».

ومع أن الغراب أصغى السمع بعناية، إلا أنه لم يعد قادرا على سماع الحديث الهامس الذي يدور بين الطواطم.

«على أي حال سمعت بما فيه الكفاية»، قال الغراب في سره، عاقدا العزم على أن يراقب بعناية مأدبة الغد، علَّه ينتفع من الهدية التي ذكرتها الطواطم. ثم أن قلبه لم يطاوعه أن ينعم أولئك الهنود الأغبياء بكل شيء، ويظل هو خالي الوفاض.

وبدأت المأدبة الكبيرة قبل أن تصل الشمس كبد السماء. فمنذ ذلك الصباح والهنود يتوافدون من قريب وبعيد في قوارب طويلة مدببة الرؤوس، حاملين معهم هدايا ثمينة كالأغطية الملونة، وأطايب المأكولات والمشروبات، بالإضافة إلى الأسلحة المتنوعة.

وبعد أن أدى جميع الضيوف فروض الاحترام تجاه الطواطم في غابتها وتحلقوا جالسين، حدث شيء لم يكن في الحسبان: فجأة عصف الجو كأن آلافا من أجنحة الطيور تخفق فيه وزمزم البحر وأرغى، وعلى المدى البعيد وفوق ذرى الموج المتلاطم بدا شيء غريب يلمع ويطير نحوهم.

في تلك اللحظة بالذات، هتف كبير الطواطم ونادى جموع الهنود بصوت بشري أذهلهم:

«إن الأرواح الطيبة تأتيكم بأُعطية ذات قيمة: إنها نحاس، منه تصنعون رؤوسا لسهامكم، ورماحكم، وحرابكم. وهو خير لكم من الصوان الذي كنتم تستخدمون حتى ساعتنا هذه».

وما كاد كبير الطواطم أن ينهي حديثه، حتى انقض الغراب فجأة فوق رؤوس الهنود المنصتين قاصدا اختطاف الشيء اللاصف في السماء. وعندما رفعوا أنظارهم نحو السماء، بهرهم ألق الشيء اللاصف وصعقتهم وقاحة الغراب. لكن الأرواح الطيبة كانت يقظة ولم تسمح للطائر أن يختطف هديتها.

وعادت الأمور على ما يرام، فالغراب فيما يبدو تبين له عدم جدوى جهوده وأخذ يبتعد، لكنه في تلك اللحظة بالذات، عاد كالبرق، مباغتا الجميع وانتزع بمخالبه كرة النحاس المتألقة من الأرواح المذهولة، وكان على وشك أن يطير بها.

لكن الكرة كانت أثقل مما توقع، ولم يستطع أن يمسك بها إلا بعض هنيهة ثم أفلتت منه في البحر الذي طمر الكنز الثمين في أعماقه.

«ما العمل الآن؟» تهامس الهنود ملتفتين إلى الطواطم لعلها تجود عليهم بنصيحة طيبة، لكن الأعمدة المقدسة ظلت ساكتة ساكنة، فقال زعيم الهنود، قاطعا الصمت الذي خيم على الجموع المحتشدة:

«أفي القوم صياد ذكي بارع يستطيع انتشال الهدية الثمينة برمحه؟ وإن نجح، فسأعطيه ابنتي الوحيدة زوجة له».

ولما سمعت البنت كلمات أبيها، ارتجفت وترقرقت الدموع في عينيها، لأنها كانت قد عاهدت صيادا شجاعا من قريتهم أن تكون زوجته، وها قد مضت أيام وليال على رحيله، يجوب البحار البعيدة ليجلب لها هدية الزفاف، وقد وفت بعهدها طوال غيابه.

لكنها لا تستطيع معارضة قرار أبيها. ووافقه آخرون، بل هناك من ألقى بقاربه في الماء لتوِّه.

وذهبت ورد البحيرة، ابنة زعيم القبيلة، تلك الفتاة الجميلة، كسيرة الخاطر إلى غيضة الطواطم، وهناك ركعت أمام أحكم الطواطم.

«ماذا عساي أن أفعل؟ أرجوك، ساعدني، يا أحكم الحكماء!» هكذا توسلت إليه.

ولما رأى قلبها يتفطر حزنا، خاطبها الطوطم بصوت خفيض لا يسمعه سواها.

«ارتدي ملابس رجل، ثم سيري بمحاذاة الشاطئ حتى تصلي إلى مصب بحيرة السلمون، وستجدين هناك قاربا وبداخله رمح، انطلقي في عرض البحر ولا تأبهي بأمواجه التي ستداعب القارب بشدة تجعلك تعلمين معنى الخوف، وسيأخذك القارب إلى حيث ترقد كرة النحاس في قاع البحر، وعندما يتوقف، خذي الرمح وغطّسيه في الماء حتى يخترق النحاس، وعند انتشال الهدية، ارجعي إلى مصب بحيرة السلمون. إن لم تفعلي تماما كما أقول لك، فاعلمي أن الأمواج ستغرق قاربك وأنك هالكة في البحر لا محالة. والآن اذهبي ولا تتقاعسي».

ولم تتردد الفتاة لحظة واحدة. ارتدت ثياب أحد إخوتها ولطخت وجهها بطين ملّون رغبة في التمويه، وانطلقت إلى مصب بحيرة السلمون. وهناك وجدت قاربا ورمحا، فأبحرت في البحيرة لا يعتور قلبها الخوف.

اكتشفت بسرعة أن المحيط هائج مليء بالدوامات الغادرة، التي بدأت هي والأمواج بالهجوم على القارب، الذي واصل سيره إلى هدفه المقصود.

وأثناء إبحارها، لاحظت ابنة الزعيم قوارب الذين سبقوها مقلوبة. لم يستطع أحد الإبحار بعيدا، بل دفعوا حياتهم ثمنا لشجاعتهم ورغبتهم في الزواج من ورد البحيرة، فعلموا، حين لا ينفع علم، أن البحر لا يتخلى بملء إرادته عما عدّه في يوم من الأيام ملكا له.

وتوقف القارب، ورفعت الفتاة رمحها، ورمقت المياه الهائجة. ارتجفت يدها، لكن تفكيرها بحبيبها حوَّل يأسها قوة. وشكَّت رمحها في الماء بكل ما أوتيت من قوة، وما إن شعرت أنه أصاب الهدف حتى بدأت تنتشله.

وراحت الأمواج الهائجة تتقاذف القارب كيفما شاءت، وعندما استخلصت كرة النحاس من الأعماق، أخذ البحر يضرب قاربها بضراوة؛ فزأر وهاج وماج كظبي متوحش، وأيقنت الفتاة أنها هالكة لا محالة، لكنها كانت دائما تخرج من بين الأمواج الثائرة، ولم يمض وقت طويل حتى وصلت إلى شاطئ بحيرة السلمون.

واستقبلتها هتافات الفرح على الشاطئ، حيث تجمع أهل قريتها جميعاً. وانحنى الزعيم ذاته ليلتقط الكرة النحاسية من قاع قاربها، وعندما رفعها ليريها للحشود، انقض الغراب مرة أخرى وهو يزعق بصوته المشؤوم؛ فانتزعها من بين يدي الزعيم المذهول وطار بها إلى قمة أعلى صنوبرة، كأن الأرواح الشريرة ذاتها قد منحته قوة من لدنها.

«إن هديتكم عندي الآن، ولا تتوقعوا مني أن أعيدها إليكم!» صرخ الغراب مزهوا بنشوة النصر. «لن أعيدها!» كان يزعق كلما أزّ سهم في الهواء يطلقه الهنود في محاولة يائسة لاسترجاع كنزهم.

وحاولت الفتاة أيضا أن تصيب الغراب السارق بسهامها. في هذه الأثناء تبين الجميع هويتها، بعد أن انفلت غطاء رأسها فتدفق شعرها الأسود المتماوج زُرقة وانساب على ظهرها. لكن حتى سهامها لم تستطع الوصول إلى قمة الصنوبرة.

في تلك اللحظة سمعت الجماهير وقع أقدام آتية من بحيرة السلمون وأقبل شاب يعدو بخفة الغزال. وما إن اقترب على مسافة أفصحت عن هويته، حتى انطلقت الفتاة لتلاقيه وترتمي في أحضانه.

«لقد وصلت أخيرا، يا حبيبي». وأخبرته بما حدث وهي تعانقه، فأخذ قاهر الموج، وهو لقب اكتسبه الشاب نظرا لمهارته في توجيه قاربه، أخذ سهما من جعبته ووضعه في القوس. ولما أخرج الغراب الوقح رأسه، أطلق سهمه باتجاهه.

وكان الصمت مطبقا عندما انطلق السهم وزعق الغراب. بعدها سمعت طقطقة في أعلى الشجرة، بينما كان الغراب، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، يغرز مخالبه في لحاء الشجرة، ثم سقطت الكرة النحاسية الملتهبة.

ولما ارتطمت الكرة النحاسية بالأرض انكسرت إلى ألف قطعة صغيرة، وظن الهنود أن الغراب صدق وعده، فها هو قد سرق هديتنا منا ودمّرها بحيث لم تعد تنفع.

«ليس الأمر كذلك»، جاء صوت من حيث كان يقف أحكم الطواطم. «فمن هذه الشظايا عينها ستصنعون أفضل الرؤوس لسهامكم ورماحكم».

وبينما انشغل الهنود بالتقاط القطع النحاسية، التفتت الفتاة إلى الرامي المحظوظ. سألته وهي تمد إليه يديها:

«وما الهدية التي جلبتها لي يا عزيزي؟»

«هدية صغيرة في الواقع»، رد الشاب. «لقد اصطدت حوتا كبيرا، ربما أكبر حوت في العالم كله، لكني قدمته هدية عند خليج الحوت لهنود كانوا يموتون جوعا. وهذا هو كل ما احتفظت به، إنه يدعى العنبر». وناول الفتاة علبة خشبية مليئة بدهن تفوح منه رائحة مُسْكِرة.

دهنت ورد البحيرة يديها ووجهها، ثم رافقت خطيبها إلى بستان الطواطم، ومشى خلف العروسين السعيدين حشد من الهنود يتقدمهم زعيمهم الذي لم يستطع أن يحول ناظريه عن الشابين أمامه، وقد سمعه الماشون بقربه وهو يهمس:

«لقد أحسنت الاختيار يا بنيتي، سيكون قاهر الموج زوجا طيبا ومخلصا ما دمت حية».

الهنود والموت

في تلك الأيام التي خلت منذ أمـــد طويل، لم يكن الهنود ولا الحيوانات خاضعين لسطوة الموت، كانوا يعيشون جميعا إلى الأبد، ومع ذلك كان هناك متسع للجميع. ولم يتذمر أحد سوى القيّوط، إذ إنه بطبيعته غير قنوع، فراح يشتكي: «لا أعرف لماذا علينا أن ننحشر هكذا، آه لو مات العجزة لكنا في أحسن حال». وراح يجوب المروج ويصرخ بأعلى صوته حتى سمعته الغاب والفيافي، لكنه لم يحظَ باهتمام أحد، لأنه كان معروفا بأنه وغد لا يتورع عن خلق المشاكل لكل من حوله، سواء أكانوا أحياء أم جمادا.

لكن هذه المرة بدا واضحا أنه لن يتخلى بسهولة عن الفكرة التي رسخت في رأسه الملتوي الأشعث. ولما طال بقاء الثلج على الأرض على نحو لا مثيل له تلك السنة، وبدأ خطر المجاعة واضحا، راح يصيح مرة أخرى:

«تفضلوا وانظروا! ألم أقل لكم؟ إننا قوم كثيرون ولا نحتمل هذا العدد الزائد، ولهذا السبب نجوع، لو مات كبار السن، لتوافر الغذاء بكثرة».

وأخيرا سمع كبير الكهنة باقتراحات القيّوط، فغضب وأراد أن يعاقب الوغد الشرير، لكنه تراجع وقرر أن يدعو لاجتماع لعله يبين للقيّوط من خلاله كم يستقبح الجميع اقتراحه هذا، أو لعله تتاح له الفرصة ليقلع عن أفعاله الشريرة.

وهكذا اجتمع الهنود والحيوانات عند قدم الصخرة المقدسة، وجلس كبير الكهنة على جذل شجرة في أعلى المنحدر. ولما رفع رأسه ليخاطب المحتشدين، لامست عمامته كبد السماء. قال:

«أيها الأبناء، لم أعد أطيق سماع نباح أخيكم القيّوط، الذي لا يفتأ يقترح علينا أن نجلب الموت إلى هذه الدنيا. من أجل هذا دعوتكم للاجتماع. قولوا للقيّوط رأيكم بفكرته، لعلكم تلقنونه درسا».

وراحت الحيوانات جميعا تتشاور بهدوء، بينما جلس القيّوط وحده. وبين الفينة والأخرى كانت آذانه تشرئب فينهض ويهرول بين هذا وذاك علّه يسمع ما يقولون. وفجأة هتف:

«أيها الكاهن العظيم، لم أكن أقصد الأذى لأي كان. لكن ليس هناك ما يكفي من الطعام ولا نستطيع أن نحيا جميعا». وضاقت عيناه الماكرتان حتى أصبحتا مجرد شقين صغيرين. «وما كان قصدي أبدا أن الذين يموتون يجب ألا يعودوا إلى هذه الدنيا».

«إذن، ما الذي تقترحه؟» سأل السنجاب.

«سأقول لكم بشرط... لا أعرف. المشكلة أنه لا يثق بي أحد».

«بل قل لنا، هيّا»، حضه الهنود، وانكفأ كبير الكهنة إلى الأمام كي يسمعه أحسن:

«لا بأس، إذن»، قال القيوط. «أقترح أن نجعل ثقبا في السماء بحيث ينتقل إليه جميع الموتى إلى أجل غير مسمى. وعندما يتوافر الغذاء الكافي للجميع مرة أخرى، نعيدهم إلينا».

همهم الدب: «لكن لا توجد شجرة بهذا العلو الذي تقترحه».

أجاب القيّوط باعتداد: «لقد خططت لكل شيء؛ يمكن لأي سهم

هندي أن يصل إلى السماء، ثم نطلق سهما آخر لينضم إلى الأول، فثالثا ورابعا، وهكذا حتى نصل السماء بالأرض. حينها يستطيع أي واحد أن يتسلق صاعدا، أما النزول فهو أسهل بكثير».

وبدا اقتراح القيّوط معقولا جدا. أما كبير الكهنة فقد ظن أن الاقتراح محبوك حبكا ماكرا، لكنه لم يجد اعتراضا عليه. ولاقت الفكرة استحسانا حتى عند المتشككين. كان القيّوط يبتسم ابتسامة فاعل الخير، لكن آه لو عرفوا الحقيقة!

في هذه الأثناء انطلق الهنود ليحضروا ما يستطيعون حمله من قوس ونشاب، ثم استعد أفضل الرماة للرمي.

وانطلق أزيز أول سهم فوق رؤوسهم واخترق غيمة منخفضة، وتلاه مباشرة سهم ثان، فشق السهم الأول حتى ريش الزينة، حيث استوثق جيداً.

ونظرت الحيوانات بإعجاب بينما راح الهنود يظهرون مهارتهم في الرمي. فلم يخطئ سهم هدفه. كان القيّوط يتقافز هنا وهناك، ويندس بين أرجل الرماة، فيعرقلهم ويسدي لهم نصائحه كأنه هو الذي علمهم فن الرمي، وأخيرا وصل خط السهام الطويل إلى الصخرة المقدسة؛ فنهض كبير الكهنة من مجلسه وشد السهام ليختبر متانتها فبدت مستحكمة وقادرة على حمل مقدار وزن دب.

كان الغسق قد حل، فأشار كبير الكهنة بيده للجموع إيذانا بالانطلاق نحو بيوتهم:

«اذهبوا إلى مخادعكم الآن، لكن الموت سيكون معنا بدءا من هذا اليوم، وكان هذا قراركم أنتم. والآن سأفتح منفذا في

الصخرة المقدسة ليخرج منه الموت، وعلى من يختاره أن يصعد إلى السماء ليبقى هناك إلى أجل غير مسمى».

وخيم الليل على البلاد، وكانت تلك الليلة الأولى التي تجول فيها الموت في بلاد الهنود، الليلة الأولى التي مات فيها غُرير هرم في جحره، وصياد وحيد في كوخه، ونسر في وكره في أعالي الصخور. وسار الموتى في الظلام إلى الصخرة المقدسة، وقبل طلوع الفجر اختفى آخرهم داخل الثقب في السماء المرصعة بالنجوم.

ومر الوقت، وسرعان ما ملأ نحيب الثكالى الأرجاء، وذهب الكثير إلى كبير الكهنة يطلبون المشورة، لكنه كان هو أيضا عاجزا عن المساعدة في هذا الوقت. لكنه قال لكل عُوّاده:

«علينا أن ننتظر حتى تنخفض النجوم قليلا. أما والحال كهذه، فهي لا تستطيع أن تسمع نداءنا».

وليلة بعد ليلة ركز الناس والحيوانات نظرهم في السماء، مترقبين عودة الذين فارقوهم. ولم يتوار عن الأنظار سوى القيّوط. فقد لازم جحره الذي صارت تصدر منه أصوات صرير غريبة، على حد قول الذين مروا به، فتساءلوا عما يفعله ذلك الوغد اللعين، لكنهم في الأغلب أجمعوا على أنه كان يخشى أن يخرج لئلا يعاقبوه على مزحته السمجة التي سببت كل هذه المشكلات.

إلا أن ذهنه المعوج تفتق عن خطة جديدة أكثر خِسَّة من سابقتها، فقد جلب القيّوط أحجارا حادة الأطراف إلى جحره، وراح يقضي أياما طويلة يسن أسنانه عليها حتى تصبح أنيابه أمضى من فأس «التوماهوك» الهندية، وهذا ما يفسر صدور الأصوات الغريبة عن جحره.

وحين كاد القيّوط أن يجرح لسانه بأسنانه، قرر في نفسه أنه فعل ما بوسعه استعدادا للمهمة التي تنتظره، ثم خرج بهدوء تحت جنح الظلام.

كان الليل في الهزيع الأخير، والسكون يطبق على كل شيء، فزحف القيّوط خلسة إلى الصخرة المقدسة، ينقل مخالبه بحذر على الأرض حتى لا يدل على نفسه ولو بتحريك عشبة ساكنة.

توقف عند أسفل المنحدر وأنصت. كان هناك سكون تام، ولا شيء يسمع سوى صوت الريح الليلية، وهي تصفر في أخاديد الصخرة. وهكذا لم يكن هناك ما يردعه عن تنفيذ خطته الشريرة. فوقف على رجليه الخلفيتين، وأطبق بأسنانه على السهم الأخير وراح يقضمه. وسرعان ما انهار الخشب الطري، لكن السهام الباقية ظلت مربوطة بالسماء بكل إحكام. وهذا ما أغضب القيّوط، وفي غضبه راح يهز خط السهام بعنف، أملا في انتزاع السهم الأول من علاّقته في الغيمة الفوقية.

وبالفعل حقق نجاحا موفقا، فقد تساقطت السهام من حوله محدثة ارتطاما مدوياً، ووقع بعضها على ظهره، وصرخ القيّوط من الألم.

وزحف عائدا إلى جحره مرضوضا مهشما. واندلعت الجلبة والصخب، مما أيقظ الدب، الذي أيقظ الآخرين، بمن فيهم كبير الكهنة، واكتشفوا ما حدث.

لكن ما عاد في اليد حيلة، فلن يستطيع الموتى أبدا أن يعودوا إلى أرض الأحياء ثانية.

فغضب كبير الكهنة ومن غير تردد أعلن حكمه على الجاني:

«عليك أن تغادرنا جزاء لك. لقد صبرنا عليك طويلا، علك تصلح سوء أفعالك، لكن من دون جدوى. والآن اخرج إلى المروج حيث ستعيش منذ الآن وحيدا لكي تكف أذاك عن سواك».

ولما سمع القيّوط الحكم وتبين له أن لا بديل أمامه، راح يَخِبُّ ذليلاً، وذيله يلتف بين ساقيه.

وتجول يوما كاملا، وربما أكثر، إلى أن استقر على مسافة أميال في بقعة معزولة لا يقربها مخلوق حي. فقد كان شديد الخوف من الكاهن العظيم.

وأخيرا بدأ يندم على أعماله الشريرة، ومنذ ذلك الزمن وهو ينتحب ويتوسل إليهم أن يعيدوه. وعلى الرغم من أن توسلاته كانت غالبا ما تصل إلى أسماعهم، فلم يشفق عليه أحد فيعيده. فكما أنه جلب بلا مبالاة إلى هذه الدنيا الموت الذي لن يعود أبدا إلى موطنه في الصخرة المقدسة، فكذلك اليوم يجزى.

النشيد الخالد

أقبل الليل ولف البلاد ظلام مطبق إلى درجة أنه لم يجرؤ أحد أن يطل ولو بأنفه من خيمته. وحدها الريح كانت تتنهد في التلال البعيدة.

وعلى الرغم من ذلك كان هناك أناس يسيرون على الطريق المعشبة التي تحاذي نهير الأفاعي. كانوا يتقدمون بهدوء وحذر. كانت قبائل الداكوتا تخوض غمار الحرب، وهنا فصيل من المقاتلين يغذّ السير لمباغتة العدو قبل انزياح الظلام.

والتزم المقاتلون البواسل بالصمت، تارة يسيرون وتارة يركضون، وأمامهم وخلفهم تسير دوريات مراقبة للاحتراس من أي هجوم مباغت.

وترك نهر الأفاعي السهل وقادهم إلى أجمة صغيرة.

قال زعيمهم، متحدثا بصوت عالٍ لأول مرة: «دعونا نرتاح هنا. هذا مكان معزول، ويمكننا أن نشعل نارا».

وخلال لحظة جاء المحاربون بقليل من عشب يابس ووَقْدة، وراحت النار تستعر في الحال. واتخذوا أمكنة مريحة حولها، بعضهم يصلح نعله المتمزق، وآخرون يتفقدون عدتهم من قوس ونشاب وفأس، بينما راح آخرون يعدون طعامهم.

في هذه الأثناء كان كبيرهم يروي لهم قصص معارك من عهود غابرة ومغامرات غريبة خاضها أبطال مشهورون، قصصا تحكي عن التعويذة الجبارة التي أنقذت العديد من الأرواح، وعن سترة

سحرية ردت سهام العدو إلى نحورهم، وعن فتيات حسان جئن من أرض الظلال ليقتدن أشجع الشجعان إلى بلاد لا رجعة منها.

وأنصتت النار إلى هذه الحكايات العديدة، بينما كانت تلف الأغصان الخضراء بدخانها الصامت، إلا أنها في تلك اللحظة التي قام فيها هندي ذو شعر أبيض ليدعو دعاءه الرزين، زأرت وطقطقت، ناثرة الشهب حول المعسكر. بل إن شيئاً ما أغرب من ذلك حدث في اللحظة ذاتها. سُمِعَ صوت نشيد آتٍ من الأشجار القريبة. وأخذ الصوت يتعالى، مالئاً الغيضة بلحنٍ شجي، ثم ما لبث أن انخفض ليمتزج مع عواء الريح بين الأغصان.

«اطفئوا النار»، أمر الزعيم هامسا، وتقدم في الظلام متأهبا لإطلاق نشابه.

وانسل القمر من بين الغيوم المتدحرجة، كأنه يلبي أمرا سريا، وأضاء بنوره الخافت جذوع الأشجار البيضاء. وسار المقاتلون بحذر بين الأعشاب الطرية الندية، وهم يراقبون ظلال الأغصان الملتوية التي تتأرجح مع الريح. واستمر النشيد، واتضح لتوه أنه يأتي من شجرة دردار ضخمة ممتدة الأغصان قائمة على الطرف الآخر للغيضة.

وشكل المقاتلون دائرة ثم تقدموا ببطء، وخطوة خطوة راحوا يضيقون الدائرة. وازداد صوت النشيد الغريب عُلوًّا وحدة ثم ما لبث أن توقف بصورة فجائية تماما كما بدأ. وسار المقاتلون إلى الشجرة العجوز، وجالت أنظارهم في الجذع الذي عاش فيه الزمن، ثم استقرت عند الجذور المتشابكة.

وهناك رأوا كومة صغيرة من عظام مبيضّة لمحارب مجهول، وإلى جانب الجمجمة يرقد قوس مكسور، وعلى مسافة قريبة منه تبعثرت عدة سهام.

وأخيرا قطع الزعيم الصمت الطويل، قائلاً: «إن الذي سمعناه الآن وشاهدناه لبرهان على أن هذا هو المثوى الأخير لمحارب ضحى بحياته من أجل غيره. والآن لا يستطيع حتى الموت أن يخمد صوته. إن نشيده يستمر حتى يصل إلى أسماء الأحياء ويستوجب لديهم الرد المناسب. وهذا ما حدث، وإنه لواجبنا الآن أن نحمل النشيد ومغزاه عن أقدس واجب يدفعنا إلى التضحية بأرواحنا من أجل الآخرين. إنه واجبنا نحن أن نظل نحتفظ بهذا النشيد في قلوبنا حتى يحين موعد رحيلنا إلى أرض الظِلال، عندئذٍ، سيعيش نشيدنا أيضاً إلى أزل الأزل. والسلام».

مبارزة كبير الأرواح مع رب البيض

قال القلموت بعد توقف قصير: «لقد تأخر الوقت وأنت متعب»، ثم أطلق نفثة من دخان. «وعليك أن تأوي إلى فراشك».

توسل الصبي: «لا، ليس بعد. ثم إن هنالك شيئاً أود أن أسألك عنه».

«حسن، هات اسأل، وعجل في السؤال، فقد أوشكت مؤونتي من التبغ أن تنفد، وتعب صوتي».

«أخبرني عن كبير الأرواح وأين يعيش».

«إن كبير الأرواح هو أقوى الأرواح لدى الهنود ويسكن في الخيمة العليا في السماء. مع ذلك، والحق يقال، قد يكون في كل مكان في الوقت نفسه».

«وهل استطاع أحد أن يغلبه أبدا».

«لا، لم يغلبه أحد. صحيح أن شاحبي الوجوه منذ سنين بعيدة خلت أرسلوا ربهم ليخرج كبير الأرواح من بلاد الهنود، لكن مانيتو خرج من المبارزة منتصرا».

«أرجوك أخبرني عنها»، طلب الصبي.

«حسن. سأخبرك القصة كما سمعتها من قبائل الهوران. وستكون هذه القصة ختام يومنا هذا. والآن استمع»:

كان كبير الأرواح يجلس على قمة الصخرة المقدسة عندما ظهر فجأة إله شاحبي الوجوه إلى جانبه.

قال مانيتو لضيفه بأدب جم: «أهلا بك»، لكن القادم الجديد لم يتنازل ويرد التحية، بل طفق ينظر حوله وعلى وجهه نظرة كئيبة.

«لماذا لا تكلمني؟» سأل كبير الأرواح، فجاءه الرد:

«أنا أكثر منك جبروتا، وإني لمخرجك من هذا المكان!»

«ما عليك إلا أن تحاول، يا هذا!»

ولم يقل رب شاحبي الوجوه شيئا، بل ركع على الأرض وأخرج كتابا أسود وبدأ يهمس بشيء لم يفهمه كبير الأرواح. ولما طال الأمر على هذه الحال ولا شيء يحدث، قال مانيتو مقترحاً:

«لن نستطيع أبداً أن نتبارز على هذه الشاكلة. هل ترى الصخرة التي أجلس عليها؟» فهز رب البيض رأسه، شارد البال.

«إن الذي يستطيع إزاحتها قبل الآخر، هو الذي سيبقى في بلاد الهنود»، قال كبير الأرواح. «هيَّا جرب!»

وفتح إله شاحبي الوجوه كتابه مرة أخرى، ثم قرأ وقرأ حتى بلغ الصفحة الأخيرة ولم تتزحزح الصخرة قيد أنملة. فصاح وقلبه عامر بالحزن:

«هذا مستحيل!»

عندئذ نهض كبير الأرواح، فشمر عن ساعديه ثم دفع الصخرة بكل ما أوتي من قوة. وسُمِعَ صوت ارتطام عظيم، وإذا بالصخرة قد تحركت مقدار وثبة ظبي.

فسأل مانيتو خصمه: «هل رأيت؟» لكن رب البيض قد ولى يركض لا يلوي على شيء، مثيرا خلفه زوبعة من الغبار، ولم يُر له أثر في بلاد الهنود بعدها أبدا.

الليلة الثانية

حكايات عن الغاب والحيوان

لما جلس الصبي بجانب النار المتأججة في مساء اليوم التالي، نفث القلموت وقال: «لقد كنت بانتظارك». كان المطر يضرب النوافذ والسقف، لكن الكوخ كان يفيض دفئا وألفة.

«لقد عاش الهنود دوما في الهواء الطلق، وكانوا يعرفون الطبيعة وسننها»، قال القلموت ممهدا لما يريد أن يرويه.

«فعلى سبيل المثال، يقول لهم الجدول:

«إني أطرب عندما تشربون مني بينما ترمقنا الغيوم الرقيقة أو النجوم من عليائها».

«أما النار فتعلن للصياد الهندي بألحانها المطقطقة:

«أنا أختك، وسأحميك من الوحوش والبرد».

«ويهمس العشب»:

«وأنا أخوك، وعندي لك من الحقيقة ما يضمه أفضل الكتب».

«وهل كان الرجال الحمر يفهمون كل هذا؟» سأل الصبي وفي نفسه شك.

«طبعا. بل فهموا أكثر من هذا؛ فكانوا عارفين بعادات الحيوان وبالقدرة الشافية للنبات. باختصار، كانوا على علم بحكايات الغاب، وسأقص عليك هذه الليلة بعضا مما تعلمته منهم عن الطبيعة والحيوان. والآن استمع جيدا».

ميلاد الخيول الهندية

كان صبي يتيم يعيش في إحدى القرى الهندية على ضفاف النهر العظيم، وكان كوخه الطيني أصغر الأكواخ. ولما كان لا يقوى على حمل السلاح، نظرا لصغره ووهنه، كان عليه أن يتوسل إلى أهل الخير ليعطوه شيئا يقتات به.

وكثيرا ما كانوا ينهرونه قائلين: «ولماذا يجب علينا أن نطعمك؟ أنت لا تصلح لشيء، حتى الجراء تستطيع أن تحمل أثقالا أكبر مما تستطيع أنت».

في تلك الأيام لم يكن لدى الهنود خيول، ربما نسي كبير الأرواح «تيراوا» أن يمنحهم هذا الحيوان، ولهذا لجأوا إلى استخدام الكلاب لحمل أثقالهم، أو اضطروا إلى حملها بأنفسهم.

وحده زعيم القرية لم يتوان أبدا عن إمداد الغلام بما يقتات به، بل أهداه زوج نعال. يعلم «تيراوا» وحده الغرض الذي يعيش من أجله هذا الصبي، وربما يأتي يوم يصبح فيه بطلا عظيما». هكذا قال الزعيم لرعيته، لكن في الحقيقة لم يصدقه كثير منهم، فأي بطل سيصير هذا الفقير الضعيف؟

في الربيع ومنذ اللحظة الأولى التي سمع فيها الهنود هدير حوافر الجواميس عن بعد وظهرت بشائرها الأولى في الأفق، غادروا بيوتهم ليلحقوا بالقطعان ليتزودوا بلحمها وجلودها من أجل الشتاء.

كان هذا هو اليوم الذي يخشاه الصبي أكثر من أي يوم مضى، لأن الجميع سيتركونه وحيدا في المخيم، حيث يصعب عليه أن يصيب شيئا من طعام.

كان أهل القرية في السنين السابقة يجدونه لدى عودتهم وقد خارت قواه من شدة الجوع إلى درجة أن بقاءه حيا يبدو لهم أمرا مستغربا. وذات صباح باكر من شهر الورود اكتشف المستطلعون تلك النواصي السوداء المألوفة بجانب النهر، فتعالت الصيحات:

«جواميس، جواميس! الجواميس قادمة»، وقبل أن تخترق أشعة الشمس الأولى حجب الضباب، كانت القرية قد خلت من أهلها تماما.

وجلس الصبي حزينا أمام كوخه الطيني، يراقب الغبار المتراكم ببطء على الطرقات. وغاب الرجال والكلاب كلهم عن الأنظار، وظلت الأصوات والنباح مسموعة لفترة طويلة بعد أن غابوا في المرج. لقد تركوه وحيدا. فسالت دموع حرى على وجنتيه وبللت نعليه. كم كان يود أن يذهب مع الآخرين. وبللت الدموع الغبار، وفجأة تراءى له كأنه يسمع صوتا رقيقا يلح عليه بالقول:

«هيا العب، ودع أصابعك الواهنة تظهر ما بإمكانها أن تصنع!»

ترى من الذي يكلمه؟ ثم، بماذا يلعب؟ واستقرت عيناه على كومة الغبار عند قدميه والتي أحالتها دموعه إلى طين متماسك، فبدت كأنها مبتغاه.

«سأجعل لنفسي كلبا، عندها على الأقل لن أشعر بالوحدة»، قال لنفسه، وبدأ يقولب الطين الأملس بأصابعه. لكن ما هذا؟ فبدلا من الأرجل القصيرة التي للكلاب، صنع أربعة أطراف طويلة ذات حوافر. أما الرأس فكان أطول من رأس كلب وأذناه حادتان

مدببتان، وشيء يشبه العرف على رقبته، وفي مؤخرته تدلى ذيل لا يشبه ذيل الكلب أبدا. ترى ماذا صنع؟ فهو لم يرَ من قبل حيوانا مثل هذا.

«لأحاول مرة ثانية، ولأكن أكثر حرصا هذه المرة»، قال لنفسه. وبالرغم من كل الحرص الذي اتخذه، كانت يداه كأن شيئا يوجهها، فقد صاغت يداه الحيوان ذاته كما من قبل.

ونظر بحيرة إلى كلا التمثالين الواقفين أمامه على الأرض، كأنهما يتأهبان للقفز في الهواء. فجأة شعر بتعب شديد؛ فاستلقى على الأرض اليابسة، وخرَّ نائما في الحال، وإليك ما تراءى له في الحلم:

جاء «تيراوا» العظيم بنفسه من مسكنه في المدى الذي لا حدود له، فلما تجلى أمام ناظري الصبي، سمعه يقول له:

«أنا الذي آمرك أن تلعب، وبإمرتي صاغت أصابعك الخيول التي يمكنك من هذه الساعة أن تستخدمها لحمل أثقالك، أو تكون مطية لك. ونظرا لصغر حجمها المتناهي عليك أن تطعمها وتسقيها لمدة أربعة أيام بلياليها من النهر الكبير، لعلها تكبر فتخدمك خير خدمة».

وما إن أنهى «تيراوا» كلامه حتى اختفى وجهه كما تختفي الدوائر من على سطح الماء.

استيقظ الصبي، وتأبط التمثالين، وراح يحث السير باتجاه النهر العظيم. كان يعرف جيدا أين يجد العشب الغض الذي تفوح منه أزكى العطور؛ فوضع التمثالين بعناية على الأرض، وفي طرفة عين دبت الحياة فيهما، ليس هذا فحسب، بل أخذا يصهلان قليلا

أيضا. لم يستطع الغلام أن يحيد بناظره عنهما. كانت معجزة المعجزات، إذ أخذ الحصانان يزدادان حجما وقوة وهو ينظر إليهما.

تركهما يأخذان حاجتهما من الغذاء والماء، وفي المساء عاد بهما إلى القرية. في هذه الفترة الزمنية القصيرة، كانا قد كبرا إلى درجة أنه حشرهما في كوخه الصغير حشرا، وفي مساء اليوم التالي كان عليه أن يأخذهما إلى مسكن زعيم القبيلة الواسع.

ولما رأى الصبي حصانيه يزدادان كِبرًا وقوة فرح فرحا عظيما. وفي صباح اليوم الثالث امتطى كلا منهما وراح يجوب القرية جيئة وذهابا. وتملكه شعور بالحاجة إلى أن يبحث عن أصدقائه وجيرانه. لقد نسي نصيحة «تيراوا» العظيم كليةً، فخاض النهر الكبير وركب حصانيه الصغيرين مقتفيا أثر قطيع الجواميس.

ولما كان الصبي قليل الخبرة، ولم يرَ حصانا من قبل، فقد بدا له أن حصانيه لن يكبرا في اليوم الرابع أكثر مما كبرا. لكن «تيراوا» العظيم كان يراقبه، وامتقع وجهه قليلا، لأنه كان ينوي أن يمنح الهنود حصانا أكبر كالحصان الذي يملكه شاحبو الوجوه، لكنه تبين فيما بعد أن الحصان الأصغر أكثر رشاقة وهو مناسب أكثر للصيد، ولهذا السبب يدعى الحصان الهندي «بوني»، أي، الحصان الصغير.

وبعد هنيهة، رأى الصبي دخانا يرتفع من مخيم الصيادين. ولم تبدُ له الرحلة على ظهر حصانيه طويلة أبدا، فخرج زعيم القبيلة وعدة صيادين مذهولين للقائه. لم يستطيعوا أن يحيدوا بأنظارهم

عن الحصانين الصغيرين، أما الصبي، فلم يعد طفلا بائسا ضعيفا، بل شاب قوي مؤهل لأن يكون زعيما خلال عدة سنين.

وفعلا صار زعيما: فلم يمض وقت طويل حتى برز كل واحد منهم في الصيد والرماية وركوب الخيل. ولما فارق الزعيم العجوز أهله لينضم إلى أجداده، وقع الاختيار على الصبي ليحل مكانه، وهكذا ساس الرجال الحمر بحكمة ولسنين طويلة.

البومة والفأرة الصفراء

اعتادت البومة أن تغفو في كهفها في هجير الظهيرة. ولما عجزت عن النوم اليوم، فقد تساءلت عما يجري في الخارج في هذا الوقت الذي يفترض أن تنام فيه.

كانت طائرا متعاليا مغرورا، لذا أرادت أن يهابها الجميع، لكن لسوء حظها كانت تنام في كهفها أثناء النهار عندما تكون معظم الحيوانات تسرح وتمرح في الخارج، أما في الليل، عندما تروح تتعب في محاولة لمسابقة صداها، تجد كل شيء ساكنا بلا حراك.

«آها، لقد اختبأوا جميعا مني؛ إنهم خائفون، أجل، إنهم خائفون»، قهقهت البومة. «آهــــو، آوهووو»، وراحت تنعـــب بأعلى صوتها.

لكنها لم تكن ترضى بذلك فحسب.

دمدمت في سرها، في ذلك اليوم الصيفي الجميل: «أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب وأسأل أحدهم عن رأيهم فيَّ. في الحقيقة، لا حاجة لأن أذهب بعيدا، فهناك عشرات من الفئران الصفراء تعيش تحت هذه الصخرة. سأذهب وأسألها هي بالذات». لكنها آثرت أن تتريث قليلا في كهفها، إذ، لو شئنا قول الحقيقة، لم تكن ترغب بمغامرة الخروج نهارا. وأخيرا طارت خارجـــة من كهفها المظلم.

«بومة! بومة!» صاحت الفئران لما رأتها، وتفرقت إلى جحورها بأسرع ما يمكن.

وراق للبومة ما سمعت، فحطت إلى جانب أقرب جحر وحاولت أن تتجسس داخله، ونادت:

«مرحبا، أيتها الفأرة، لا تخافي مني، هل أنت هنا؟»

«نعم أنا هنا»، ردت الفأرة الصفراء الصغيرة. مع أنها كانت تعلم جيدا أن البومة لا تستطيع أن تؤذيها ما بقيت في جحرها، لكنها لم تكن مطمئنة كثيرا.

«كل ما أريده هو أن أسألك عن شيء واحد فقط»، قالت البومة في محاولة لكسب ود الفأرة، «عليك أن تخبريني ماذا يسمونني هنا في هذه الديار».

«إذن، هذا ما جاءت من أجله»، قالت الفأرة في سرها. «ومن أجل هذا ترابط تلك العجوز الشمطاء خارج جحري في النهار».

أما بصوت عال فقد قالت:

«يسمونك زعيمة الليل».

وكان لهذه الكلمات وقع كوقع الموسيقى على مسامع البومة المغرورة.

«قوليها مرة أخرى، لكن ببطء هذه المرة».

«زعيمة الليل»، ردت الفأرة، وهي ترتعش من الغضب.

«ما أشد غرورهذه المسخ القبيحة».

وطارت البومة من الفرح.

«والآن قوليها لي همسا»، قالت البومة ووضعت أذنها قرب جحر الفأرة، لكن الفأرة الصغيرة لم تعد تحتمل، فصرخت:

«ما أنت إلا عجوز شمطاء بائسة»، واختفت في جحرها العميق.

وفي البداية طرفت عينا البومة فقط، عاجزة عن الفهم، لكن الغضب تملكها بعد ذلك.

«انتظري حتى أمسك بك!» هددت البومة الفأرة الصفراء.

«سألقنك درسا لن تنسيه، ولن أبرح من هنا حتى تخرجي»، وأخذت تنقر فتحة الجحر بمنقارها انتقاما.

لكن الفأرة لم تنتظر أكثر من ذلك، بل تسللت عبر الجحر إلى أصدقائها الذين أخبرتهم بما جرى.

في هذه الأثناء ظلت البومة تنتظر الفأرة خارج الجحر ناقلة ثقلها من قدم إلى أخرى بالتناوب. كان انتظارها ثمنا باهظا لا بد أن تدفعه لقاء غرورها وغضبها، فقد أمضت يوما وليلة خارج الجحر، ثم يوما آخر، فيوما ثالثا، وتوالت الأيام لكني لا أعرف بالضبط كم، حتى هلكت من الجوع والعطش. لقد راحت ضحية تهورها وغرورها.

الظبي المسحور

عندما يوشك فصل الشتاء أن ينتهي في منطقة أشجار القيقب، يغادر الأطفال أكواخهم الوثيرة، ثم يخوضون عبر الثلج المنحسر وهم يبحثون بتوق عن الطعم الحلو الذي تفرزه تلك الأشجار في الربيع.

كانت هذه أيام سرور وبهجة، لذلك كان الصغيران «كيتو» و«وابي» دائما يترقبان هذه الأيام بلهفة كبيرة. لكن في هذا الربيع بالذات، كانا حزينين وهادئين على نحو غير مألوف من قبل، لذلك سألهم الأطفال الآخرون عندما لاحظوا ذلك:

«ما خطبكما؟ لماذا لا تلعبان معنا؟».

فانفجرت دموع «كيتو» بدلا من أن ترد، بينما قال وابي:

«لقد طردتنا امرأة أبينا. تقول إننا بلغنا أشدنا ولا ترى لزاما عليها أن تزعج نفسها من أجلنا. فماذا ترون أن نفعل سوى أن نترك القرية؟»

«لكن إلى أين تذهبان؟ الغابات تعج بالحيوانات المفترسة والأرواح الشريرة».

«لكني لست خائفا»، رد «وابي»، «لدي قوس ممتاز وسهام جيدة، هيا بنا «يا كيتو»، قال وهو يلتفت إلى أخته. «لقد حان وقت ذهابنا إذا كنا نرغب أن ننصب خيمتنا قبل حلول الظلام».

مدَّ إليها يده وانطلقا على الدرب الذي يؤدي بالخارج من القرية إلى عمق الغابة.

وســارا طويلا، طويلا. كـان الدرب ينتـهي في بعض الأمــاكن ليظهـر ثانية بعد مسافة قريبـة، وكانا يسـمعـان ما هب ودب من الأصوات الغريبـة المختلفـة الصـادرة عن الأحـراج، وصـراخ الطيـور الحاد، وخشخشة الأعشاب القصيرة، وطقطقة لحاء الشجر.

وأخـذ الظلام يزحف بثبـات، وبين الفيـنة والأخـرى تـراءت لهم وجوه متوحشـة مكشرة في الشفق المظلم. وأحيانا كان يطير طائر أسود مثل شبح بين جذوع الأشجار.

وأصيبت «كيتو» برعب شديد، فتعلقت بيد أخيها، الذي شعـر بارتعاد أوصالها جميعا، فحاول أن يطمئنها:

«سنخرج من الغابة قريبا».

فرددت الغابة صدى آخر كلماته: «إيبا ... إيبا».

«لا تلتـفـتي حـولك»، كـانـت نصـيـحـتـه «لـكيـتـو» التي رفـعـت رأسـهـا، بينمـا راح «وابـي» يتلفت ذات اليـمين وذات الشـمـال. كانت وجـوه صـفـراء وخـضـراء وأرجـوانيـة تقـفـز من شـجـرة إلى أخـرى، ومن شـجـيـرة إلى شـجـيـرة تمـد نحـوهـمـا أيادي طـويلة هـزيلة.

«انظر، هناك أثر!» صاحت الصبية فجأة مشيرة إلى الأرض.

كانت محـقـة. كـانت تحت أقدامهم آثار توحي لوابـي بأن ظبـيـا هائلا قد مر من هنا منذ فترة وجيزة فقط.

«سيقودنا الأثر إلى خارج الغابة»، قال متشجعا.

وحالما اقتفيا أثر الظبي، تلاشت الأشباح المرعبة، ثم قلَّت كثافة الأشجـار، وفجـأة وجد الصـغيران أنفسهما في فسحة كبيـرة فيها عشب أخضر، ولا يوجد فيها أدنى أثر للثلج.

واستمر الأثر إلى أن جاء بهما إلى شجرة سنديان قديمة وافرة الأغصان في منتصف الفسحة.

«أشعر بالعطش». اشتكى وابي عندما توقفا في ظل الشجرة الهائلة. وما إن خرجت هذه الكلمات من بين شفتيه حتى امتلأ آخر أثر قدم بماء زلال نقي.

ركع الصبي على ركبتيه ليشرب، لكن «كيتو» حذرته:

«لا تفعل يا أخي العزيز، فهذا ليس أثر قدم عادي».

لكن وابي تجاهل تحذير أخته وشرب بنهم وعمق.

وشعر فجأة بتراخ يشل أوصاله، وأحس بثقل في رأسه بينما تملكت يديه وقدميه رغبة في الرقص والقفز.

«أواه، ما هذا؟ ماذا جرى لك؟» وَلْوَلَت «كيتو». «إن فروا أبيض ينمو لك، وها قد أصبح لك قرون على رأسك!»

حاول وابي أن ينهض عن الأرض لكن يديه أصابهما شلل أخرق؛ فنبتت له بدلا من الأصابع حوافر. حاول عبثا أن يمسك الشجرة بها، ثم عجز عن الكلام، ولم يصدر عنه سوى زئير كصوت ظبي. لقد انقلب إلى ظبي أبيض.

أرادت كيتو أن تساعده، لكن من دون جدوى: فحدثته بل حاولت حتى نزع قرنيه. وأخيرا، وبعد رحلة يوم طويل وشاق، أسندت رأسها على فرو الظبي الدافئ ثم نامت.

استيقظت كيتو عند منتصف الليل مرتجفة. كان النسيم يهمس بين أوراق الشجرة الوحيدة، ثم سمعت صوتا يقول:

«الآن تخلصت منهما إلى الأبد!»، كان ذلك الصوت صوت امرأة أبيها.

«لن يستطيع أحد أن يساعد «وابي» الآن ما لم يقطع هذه الشجرة». فقهقه صوت آخر أجش: «وهذا لن يحدث أبدا».

نظرت كيتو إلى الأعلى، لكن كثافة أوراق السنديان حالت دون رؤيتها أي شيء. وفجأة هدأ النسيم وخفتت الأصوات، وانسحب القمر المرتجف بردا يجر أذياله عبر السماء، وخرت الفتاة نائمة مرة أخرى.

وفي صباح اليوم التالي استعادت ما قد سمعته، ومن دون أن تكلم الظبي الأبيض عن أي شيء، صنعت لنفسها فأسا صغيرا من صوَّان، ثم حاولت أن تقطع به الشجرة. وما إن ضربت جذع الشجرة الغليظ حتى تفتتت فأسها الصغيرة إلى مائة قطعة صغيرة.

ملأت الخيبة قلبها فسقطت على العشب، وجثم الظبي بجانبها.

«أتمنى لو تعلم يا وابي»، قالت وهي تمسد رأسه. «لا أظن أبدا أنني سأمتلك القوة الكافية لقطع تلك الشجرة، وأنت عاجز عن مساعدتي».

ظلت تفكر في طريقة لقطع شجرة البلوط الضخمة، لكن في النهاية لم يكن أمامها من خيار سوى أن تنصب خيمة وتنتظر. كان الظبي يخرج للمرعى كل يوم، ثم يعود مساء.

وذات ظهيرة سمعت «كيتو» صراخا آتيا من الغابة، وبعد ذلك بقليل رأت مجموعة من الصيادين تطارد الظبي الأبيض. راحت السهام تشق الهواء بأزيزها محاولة إصابته. وقف الظبي بجانب شجرة البلوط، مرتعد الفرائص. وقفزت «كيتو» ببسالة أمامه مشكلة من جسدها درعا لحمايته.

خفض الصيادون الهنود أقواسهم وتقدموا نحو هذين المخلوقين الغريبين، ولما اقتربوا أكثر، استطاعت «كيتو» أن تميز وجه أبيها بينهم.

«كيتو»، ماذا تفعلين هنا؟» صاح وهو يرفعها بين يديه «وأين أخوك «وابي»؟»

فأشارت إلى الظبي الأبيض وروت للصيادين كل ما حدث. أنصت الرجال لحكايتها بكل اهتمام، ولما انتهت، أمسك كل بفأسه وأخذ يضرب شجرة البلوط بلا هوادة، فتطايرت الشظايا في كل صوب، لكنهم، رغم كثرتهم، عجزوا عن قطعها، فاقترح أحدهم:

«لنشعل نارا ونحرق الشجرة!»

وهكذا جمعوا أكواما من الأغصان المتكسرة حول جذع الشجرة ثم أحرقوها. ولم يمض وقت طويل حتى راحت ألسنة اللهب تلتهم اللحاء الثخين، ثم أخذت الألسنة تلتهم بعدها قلب شجرة البلوط بنهم، عندئذٍ سمعوا طقطقة عظيمة وصوت انكسار، ثم هوت شجرة البلوط الضخمة على الأرض بطريقة مهيبة. كانت «كيتو» تراقب أخاها فرأت كيف كانت قرونه وفروه الأبيض تختفي تدريجيا بتناغم متزامن مع سقوط الشجرة على الأرض. وهكذا قام الصبي وابي أمام أخته من المكان الذي وقف فيه الظبي الأبيض منذ ثوان مضت.

وخرجت من النار غيمة من دخان أسود، تطير منها بومة سوداء ضخمة تزعق مرفرفة باتجاه الغابة.

«إنها ساحرة، ساحرة شريرة»، صاح الصيادون.

«أجل، هذا صحيح»، قال وابي بصوت خفيض: «لقد كانت زوجة أبينا ساحرة، والآن تحولت إلى بومة. ستلقى عقابها بالعيش مع الأرواح الشريرة في الغابة».

الكراكي الذهبية

في البعيد البعيد، وعلى مسافة ألف نوم (*) من بلاد الأنهار الكثيرة، كانت تعيش عشيرة من الطيور الذهبية الكبيرة تدعى الكراكي. كان «مانيتو» الحكيم قد أعطاها ريشا ذهبيا ونادى على زعيمها «لاتكيني» وقال له:

«لاَتكيني، أنت الآن سيدٌ على أجمل الطيور قاطبة. ولم أُعطِ ريشا ذهبيا لأي عشيرة من الطيور سوى عشيرتك. من أجل هذا يجب ألا تغادر الأرض التي خصصتها لك أبدا. هذا هو شرطي».

«ولكن ألا يجب أن نطير بعيدا؟» سأل «لاتكيني».

«إن فعلتم، سيفقد ريشكم بريقه الذهبي»، أجاب كبير الأرواح وحلَّق في الجو حتى اختفى. وظلت تيجان الصنوبر وحدها تتماوج برفق تحت وطأة زفيره.

نفش لاتكيني ريشه الذهبي بمنقاره الطويل، ثم بسط جناحيه العظيمين وحلَّق بجلال في الجو ليعلن لرعيته قرار «مانيتو» الجبار.

كان الصيف في أواخره، فأخذ الإوز والبط البري وطيور الغرّاء تتجمع في الشمال البعيد، في مضارب «لاتكيني»، منادية على جميع الطيور المهاجرة إيذانا ببدء رحلتها المعتادة نحو الجنوب.

وصار لاتكيني يشعر بالقلق أكثر فأكثر. وظل أياما بلياليها

(*) يبدو أن للنوم دورا كبيرا في نظر الهنود الأمريكيين، فهم يصفون العالم قبل الخلق بالسبات العظيم، ويسمون الشتاء شهر الرقاد الطويل، والنوم الواحد هو أصغر وحدة يقيسون بها الزمن(المترجم).

يراقب أسرابا هائلة من الطيور تتلاشى وراء الأفق، وليلة تلو أخرى ظل خفقان الأجنحة العابرة للسماء المدلهمة يدك مسامعه، ولما وجد ذات صباح أنه لم يبقَ من الطيور سوى الكراكي في تلك المنطقة كلها، لم يعد قادرا على مقاومة الإغراء، فحلَّق عاليا، وأعطى الإشارة إيذانا ببدء الرحلة الطويلة.

غضب «مانيتو» غضبا شديدا من معصية الكراكي الذهبية لأوامره، وكان يعرف أن الكراكي تقصد بلاد الأنهار الكثيرة، لذلك أعطى أوامره إلى كل المياه في تلك البلاد لتجرد عشيرة لاتكيني من لونها الذهبي.

طارت الكراكي ليلا ونهارا، ومرت فوق أراضٍ مجهولة حتى أتت أخيرا فوق المروج المتألقة بنور الشمس، التي تتخللها خيوط من أنهار فضية وبحيرات لامعة. لقد وصلت أخيرا إلى بلاد الأنهار الكثيرة.

طوى «لاتكيني» جناحيه، وحام حول البحيرة، ثم أبحر في رحلة هبوط بطيء نحو سطحها تتبعه العشيرة كلها، وما أن هبط حتى هبت عاصفة دفعت الأمواج إلى ارتفاع هدّد بإغراق الطيور، وقامت المياه الهائجة بنتف ريش الكراكي الذهبي وحملته بعيدا وفقا لأوامر مانيتو.

عندئذٍ نادى «لاتكيني» على أتباعه أن اصعدوا إلى السماء ثانية، لكن الأوان قد فات. وهكذا صارت الكراكي الذهبية أسرابا بيضاء تجوب السماء تحت شمس الجنوب، وفي تلك اللحظة تذكّر «لاتكيني» تحذير كبير الأرواح، فعزى نفسه قائلا:

لعل «مانيتو» يكسو ريشنا ذهبا مرة أخرى، عندما نعود شمالا في الربيع، وعندها لن نعصيه ثانية وسنبقى هناك».

وانتظر قدوم الربيع بفارغ الصبر، وما إن رأى أول سرب من الطيور تعود إلى موطنها، حتى نادى على قومه أن يطيروا أيضا.

طارت الكراكي مرة أخرى لعدة أيام بلياليها، ولم تسترح حتى وصلت إلى موطنها الأصلي، فحطَّت على الأعشاب، إلا أنها بقيت بيضاء اللون كأن الثلج قد هطل ثانية. عندئذٍ علم «لاتكيني» أنه أضاع ريشه الذهبي إلى الأبد؛ لأنه عصى أوامر كبير الأرواح.

شجار الأصدقاء

تلقى الخلد ذات يوم رسالة غاية في الغرابة. كانت الرسالة ورقة عشب طويلة تزدحم بعقد مختلفة، وكانت كل عقدة تمثل كلمة في لغة الحيوان في ذلك العصر. وبعد أن فك رموز الرسالة بشيء من الصعوبة، تبين أنه مدعو للذهاب إلى الجزيرة اليابسة، ومما أثار دهشته أن الرسالة موقعة من أربعة زعماء كبار: الثعلب، والغراب، والأرنب، والدب.

فقال الخلد في نفسه: «علي أن أُسرع، فلا بد أن هناك أمرا ذا أهمية».

ومضى في الحال ليستعد للرحلة، وبسرعة رتب خيمته بجانب شجرة قيقب موغلة في القدم، ثم نظف فروه المخملي وانطلق في رحلته، ولما وصل إلى شاطئ البحيرة كان منقطع الأنفاس، لذلك كان الوصول إلى الجزيرة اليابسة غاية في الصعوبة نظرا لأنه أتعب نفسه قبل بدء السباحة.

كان الزعماء الأربعة في انتظاره، فبادره الدب بقوله:

«بما أن شملنا اجتمع الآن، فمن الأجدر بنا أن نبدأ، والحديث أولا للثعلب».

شرع الثعلب حديثه من دون مقدمات: «لقد قررنا نحن الزعماء الأربعة أنه يتعين عليك أن تنقل مسكنك، فأنت تقف في طريق الجميع».

«هذا ما تقوله أنت، أيها اللئيم!» قال الخلد في سره، إلا أنه علانية لم يستطع سوى أن يحتج بصوت خافت «لماذا؟ أنا سعيد حيث إن خيمتي قرب شجرة القيقب العجوز».

«إن كنت سعيدا أو تعيسا»، نعق الغراب، «فأنت مخلوق أسود قبيح، ولا أدري كيف تتوقع منا أن نطيق رؤياك على الدوام؟»

«لا بأس يا ذا الجمال!» قال الخلد في سره. «إن جميع الأمهات من الطيور يتحاشين رؤياك عندما تفقس صغارها خشية أن تشبه صورتك». لكن قبل أن يجرؤ على الحديث كانت الأرنب قد بدأت حديثها شاكية:

«إنك تظل تحفر تحت الأرض بلا هوادة، ولا تكف عن ذلك حتى في الليل. ألا تعلم أنني خفيفة النوم، وأن الضجة التي تحدثها توقظني؟»

كانت عيون الخلد الصغيرة الذكية اللامعة في ضوء الشمس الساطعة مركزة على وجه الأرنب وبدت كأنها ترد عليها وتقول لها:

«امضِ في خداع نفسك ما شئت. لكن هل تتوقعين مني أن أصدق أنني أنا الذي يوقظك ليلا؟ إنني أعتقد جازما أن السبب الحقيقي هو خوفك، لقد كنت جبانة طوال حياتك، ومن كان جبانا مرة يظل جبانا إلى الأبد».

لكن هذا كان مجرد الرد الذي عبرت عنه عينا الخلد، أما شفتاه فلم تنبسا إلا باعتذار خجول:

«يؤسفني هذا الذي سمعته، وأعدك أنني في المستقبل سأعمل بهدوء كيلا أُزعجك».

والآن جاء دور الدب في الحديث، فقال بصوت عميق:

«أُريد أن أشق دربا لنفسي وتلّتك تعترض طريقي. وآمل ألا تظن أنني سأحيد عنها».

وقف الخلد هنيهة يرقب الواحد تلو الآخر بخوف. بعدها أخذ يتوسل إليهم آملا في أن يرقّوا أو يغيروا آراءهم:

«ويلاه، ماذا سأفعل؟ لقد عاش أبي وجدي وجدُّ جدي في تلك الخيمة قبلي، حتى مانيتو الجبار منحهم إذنا بنصبها حيث هي الآن. إلى أين سأذهب إن كنتم تنوون اقتلاعي من هنا؟» فزجره الثعلب قائلا: «كفّ عن التشكي. إن لم ترحل بمحض إرادتك فإننا سنقتلك يوما ما ونتخلص منك بهذه الطريقة».

«علام كل هذه الجلبة؟» قال صوت غريب مقاطعا جدلهم، فالتفت الجميع مندهشين ورأوا سلحفاة تحدق فيهم.

«اغربوا عن وجهي ولا تتباطأوا في ذلك»، جاء أمر السلحفاة الغاضبة. «هذه جزيرتي أنا، ولا شأن لكم فيها على أي حال».

«لكننا نتشاور في...»، احتج الغراب.

«وما شأني أنا بذلك؟» ردت السلحفاة. «اذهبوا من هنا قبل أن أحرقكم برمل كالجمر، مع السلامة».

وفعلا، بدأت حرارة الرمال تشتد أكثر فأكثر، مما جعل الزعماء الأربعة ينسحبون بهدوء، فأسرعوا إلى الشاطئ وعبروا الماء إلى البر. ولم يبق سوى الخلد الذي حفر في أعماق الرمل حيث الحرارة خفيفة، ولم يُطل برأسه ثانية حتى اطمأن إلى خلو الشاطئ.

«أرى أنك جبارة وتحبين الخير»، قال الخلد للسلحفاة. «وأود أن أطلب منك معروفا».

«تفضل. ولا تخش شيئا، سأفعل ما بوسعي لمساعدتك بأي وسيلة ممكنة. لقد أراد أولئك الأوغاد أن يؤذوك، لكني لن أسمح لهم بذلك. إن درعي متين ولا أهاب منهم أو من أسلحتهم البتة».

«إنهم ينوون طردي من منـزلي أو قـتلي إن لم أُطعِـمهم وأخـرج بمحض إرادتي. هل تسمحين لي بالبقاء معك؟».

«لكن هذا مستحيل، إذ لا أشجار هنـا ولاعشب-إنَّ رأيي هو أن نصبح أصدقاء، وما دمنا سنبقى حلفاء أوفياء، لن يجرؤ أحد على التحرش بك».

فـوافق الخلد بسـرور، وامـتـلأ قلبـه ثقـةً وأمـلا لما عـرف أن لديه صـديقـا يعـوِّل عليـه. ولـم يعـد للخــوف من داع الآن، فـــودع السلحفـــاة وافـترقا وقد تواعـدا على أن يتـزاورا من حين لآخر.

ولم يمض وقت طويل حـتى عـرف الزعـمـاء الأربعـة أن الخلد اتخذ من السلحفاة خلا وحاميا له، لذلك حرصـوا بكل الوسائل على ألا يزعـجـوه. لكنهم في ســرائرهـم تمنوا أن ينتـقـمـوا منه، وخاصة الثعلب الذي دبَّر خطة ماكرة.

«نعم وجدتها»، قال في نفسـه: «سـأعـمـل جـهـدي لكي لا يلتقي هذان الاثنان، وبعدها، لكل حادث حديث».

وفي اليـوم الذي كـان يفـتـرض أن تزور السلحـفـاة فـيـه الخلد، قُرعت طبول الحرب على نحو غير متوقع في الغاب، فوصل صداها إلى الجزيرة اليابسة حيث كانت السلحفاة تستعد للانطلاق.

«هذا نـذير شـؤم». قـالت السلحـفـاة في سـرهـا، ووقـفـت عند الشاطئ تنتظر توقف قرع الطبول.

في هـذه الأثناء تـعـالت أصـوات الطبـول إلى درجـة أن الخلد تخيل أن العالم بأجمعه قد اختار طريق الحرب».

«ما الذي يجري بحق السماء؟» تساءل الخلد خائفا، وهو يطل برأسه بين

الحين والآخر أملا في رؤية السلحفاة التي كان يشعر بأمان أكثر برفقتها.

لكن السلحفاة لم تأت، وتساءل الخلد في سره:

«لعله يجدر بي أن أصعد إلى قمة الصخرة حيث الأمان أكثر من هنا في منزلي». وصعد إلى قمة أعلى جرف وظل هناك سحابة يومه، ولم يعد إلى منزله إلا عند حلول الظلام، وفي طريقه التقى الثعلب.

«يا للمفاجأة. لقد كنا متأكدين أنك مت في الحريق أيضا»، قال له الثعلب وهو يتظاهر بالمفاجأة، وعيناه تلمعان مكرا وخبثا.

«ولماذا؟» تساءل الخلد.

«ألا تدري؟ كانت السلحفاة صاحبة الجزيرة اليابسة تبحث عنك، وكانت تستشيط غضبا لأنك على حد زعمها، كنت تغتابها؛ لهذا أحرقت خيمتك في غيابك». وكادت الصدمة أن تودي بوعي الخلد، وبدا العالم كأنه يدور حوله.

ما أفظع الإساءة من خل وفي! شكر صاحبنا المسكين الثعلب على الخبر وأسرع إلى بيته، غير منتبه إلى الابتسامة الماكرة على وجه الثعلب. وقضى تلك الليلة في العراء، إلى جانب بقايا بيته المحترق، يفكر بوسيلة ينتقم فيها من صديقته السابقة.

وفي صباح اليوم التالي، عبر الخلد البحيرة إلى الجزيرة باكرا، ونادى السلحفاة بصوت حاد امتزج فيه الألم بالغضب:

«اخرجي أيتها الخائنة، ودعينا نتقاتل حتى الموت!»

لكن لم يكن في منزل السلحفاة سوى الصمت. ونظر الخلد في الداخل، فوجد أن السلحفاة قد ذهبت باكرا للصيد.

«لا بأس إذن، سأذيقك مما طبخت يداك!» صرخ الخلد

بحنق وأضرم النار في منزل السلحفاة؛ فتعالى اللهب يصاحبه هدير باهت، ولم يمض وقت طويل حتى لفَّ الدخان الجزيرة اليابسة بكاملها.

ورجعت السلحفاة إلى بيتها على جناح السرعة: «أهكذا تجازيني مقابل معونتي وصداقتي؟» قالت من بعيد، ثم جاءت إلى الخلد وتعاركت معه.

تعاركا طويلا وبضراوة أثارت الرمال حولهما. وفي النهاية غضبت الرمال منهما فدفنتهما وهلكا معا، وفرح الزعماء الأربعة لهذه النهاية، إذ كانوا هم الذين أضرموا النار في خيمة الخلد. وما كان على الثعلب إلا أن يضع اللوم على السلحفاة فانطلت الحيلة على الخلد الساذج.

وهكذا، حين يتخاصم الأصدقاء، يفرح أعداؤهم.

صداقة القضاعة

توالى سقوط الثلج أياما بلياليها خلال شهر الرقاد الطويل. وهبت عاصفة اتخذت من الريح حصانا لها تجوب به البلاد طولا وعرضا؛ كانت عاصفة محت آثار أقدام الحيوانات التي هربت إلى حيث الأمان في أوكارها ومخابئها.

واستوطن في قرى الهنود الحمر ضيف ثقيل: إنه الجوع، مما أجبر الصيادين على الخروج في العاصفة، ولكنهم كانوا دائما يعودون خلو الوفاض، منهكين من ذلك البحث العابث عن آثار أقدام الحيوانات التي طمرها الثلج الأبيض الصامت.

كان عواء الذئاب الجائعة يُسمع بين حين وآخر فوق أزيز الرياح، عواءٌ يرعب الصيادين، إلا أن عويل صغارهم الجياع كان أشد وقعا.

وعندما وصلت الأمور إلى هذا الحد، طلب «داداوات» الجبار، كاهن القبيلة، العون من كيسه السحري، وقال للصيادين المجتمعين:

«إنه سحر عظيم. كل ما عليكم فعله هو أن تلمسوه وسيجلب لكم الصيد الذي ترغبون، لكن إياكم أن تقطعوا قلب الحيوان الميت وتأكلوه، إذ سيبطل مفعول السحر».

كان زعيم القبيلة أول من لمس الكيس السحري، وتمنى أن يقتل دبا في اليوم التالي، وتبعه الآخرون بالتسلسل إلى أن جاء دور آخرهم، «سكاجيدي»، أصغر الصيادين، الذي تمنى أن يقتل وَشَقا.

وخيَّم ليل صقيعي على الدنيا. وانقضَّت العاصفة الثلجية على جدران المنازل كأنها تنوي اقتلاعها من جذورها، وغيوم من الثلج عصفت بالبلاد بحركة دورانية متماوجة كأنها أشباح بيضاء يرافق الريح رقصها الهائج بألحانه المتمردة في قمم الأشجار.

وحده «سكاجيدي» ظل يقظا تلك الليلة. ولما لم يعد يطيق وخز الجوع، نهض وكان الليل في الهزيع الأخير، وخرج إلى الغابة، معتمدا على ذاكرته وآملا في أن يجد مع خيوط الفجر الأُولى آثار أقدام وشق جديدة.

وكم كانت دهشته عظيمة عندما صادف وشقا في الظلام. كان ذلك الشرس يغرز مخالبه في قضاعتين صغيرتين لا يزال فيهما رمق. ولما سمعا وقع أقدام «سكاجيدي» رفعا رأسيهما ورمقاه على ضوء النجوم بعيون تستغيث، فرقَّ قلبه لرؤيتهما.

وبضربة واحدة قتل الوشق وانطلقت القضاعتان وكان سروره عظيما إلى درجة أنه نسي جوعه. لكنه أحس بوخز معدته ثانية حالما تلاشت القضاعتان عن الأنظار. ولشدة جوعه أكل قلب صيده في الحال، متناسيا تحذير الكاهن. لن يعرف أحد، قال في نفسه بعد أن عاد إلى منزله واستلقى للنوم. وفي الحال أخذ يغط في نوم عميق.

في هذه الأثناء خرج رجال القبيلة للصيد لكن الكيس السحري فقد مفعوله. أفلت الدب من بين يدي زعيم القبيلة مع أنه كان على وشك الإمساك به، ولم يكن حظ الآخرين بأفضل.

فأجمع الصيادون على أن هناك خطبا ما، فقفلوا راجعين إلى القرية لاستشارة داداوات، الذي شك في الحال أن أحدهم عصى

أوامره لا محالة. ولم يطل البحث عن الجاني، إذ وجدوا وشقا بجلده مرميا أمام خيمة «سكاجيدي»، وعندما قلبه الكاهن وجد أن سكاجيدي قد أكل القلب.

«يجب معاقبة الغلام! لقد أبطل مفعول الكيس السحري الذي كان موضع حسد لدى جميع الكهنة في بلاد الهنود. لقد حباها مانيتو بنفسه قوة من لدنه». هكذا تكلم داداوات الغاضب إلى جمهور الصيادين الصامتين، ثم أصدر حكما فوريا بحق الجاني:

«سنرحل إلى أرض أخرى غنية بصيدها، أما أنت فلن تبرح ديار القرية، وحيدا، بلا مأكل أو ملبس، لأنك اقترفت إثما عظيما تجاه ذويك».

كان العقاب قاسيا حقا، لكن «سكاجيدي» تقبله كالرجال. لم يقل أحد من الصيادين كلمة واحدة دفاعا عنه، ولا امرأة ألقت عليه نظرة حانية. لا أحد سوى الصغيرة «ويا» التي اغرورقت عيناها بالدموع التي جرت على خديها وهي تنظر إليه.

غادر الجميع وبقي «سكاجيدي» وحيدا. جلس في خيمته لوقت طويل وهو يرتعد من البرد، حتى النار لم تعد تمنحه الدفء الكافي، وبينما كان ينصت إلى هياج العاصفة في الخارج، تناهى إلى سمعه وقع أقدام شخص ما، ولم يكن في شك من ذلك أبدا- فهناك شخص يقترب من خيمته. أطل من خيمته لينظر، لكنه لم يرَ أحدا، غير أن صوتا رقيقا خافتا تناهى إليه من خلال العاصفة:

«سكاجيدي»، «سكاجيدي»، هناك دب يختبئ في الكهف على بعد بضع خطوات من خيمتك. اذهب واقتله، وستنجو من الموت».

اختفى الصوت، لكن «سكاجيدي» سمع ما فيه الكفاية. في صباح اليوم التالي، عندما هدأت الريح قليلا، غادر خيمته وسرعان ما وصل إلى كهف وجد في داخله دبا يغط في نوم عميق، فقتله بضربة سهم، وجر جثته إلى الخيمة، حيث صنع لنفسه ملابس جديدة وزوجا من الأحذية من فراء الدب، ثم قطع لحمه ودخَّنه. وبالرغم من الإعياء الشديد الذي أحس به في ذلك المساء بعد يوم من العمل الشاق، لم يستطع أن يرقد لوقت طويل، إذ ظل يفكر في ذلك المجهول الذي أحسن إليه وأنقذ حياته بإسدائه تلك النصيحة الطيبة التي جاءت في حينها.

وعند منتصف الليل، كان على وشك الدخول إلى عالم الأحلام، عندما سمع ثانية ذلك الصوت الذي ألفه الآن:

«سكاجيدي»، «سكاجيدي!» ستزورك «ويا» غدا. قل لها أن تقنع الهنود بالعودة، وأن تطلب من «داداوات» ألا يغضب منك بعد اليوم، لأنك تعرف كيف تعيد إلى الكيس السحري مفعوله».

وخرج «سكاجيدي» راكضا في الليل، لكنه لم يجد ذلك المجهول صاحب النصيحة، لا شيء سوى النجوم تتلألأ بصمت في الليل الصقيعي.

وفعلا أتت «ويا» في اليوم التالي. كانت تخشى ألا تجد «سكاجيدي» على قيد الحياة، لذلك كان سرورها بلا حدود. لكنها سُرَّت أكثر عندما علمت أن بوسع «سكاجيدي» إعادة المفعول السحري إلى كيس «داداوات».

مع ذلك لم يذكر «سكاجيدي» أي شيء عن مغامرته الغريبة. وحالما رجعت «ويا»، استأنف «سكاجيدي» عمل يومه السابق. وفي

المساء جلس أمام النار ينتظر حلول الليل بفارغ الصبر لعله يسمع ذلك الصوت الرقيق ثانية، وكذلك كان.

«سكاجيدي»، «سكاجيدي»! عندما يحضر «داداوات» كيسه، خذه بين يديك، ثم اسأل الصيادين واحدا واحدا عن الحيوان الذي يرغبون باصطياده. وعندما يدلون برغباتهم، ما عليك إلا أن تفتح الكيس ليخرج منه الدب القوي أوالظبي الجامح أو أرنب الثلوج. باختصار، سيخرج منه الحيوان الذي يتمنونه بعينه. أما أنت فلا تتمنى شيئا، اكتف بما يبقى في الكيس وخذه إلى خيمتي. لن أقول لك أين هي، لكن إن فعلت كما أقول لك، فلن تضلَّ الطريق».

وفي اليوم التالي عاد الهنود إلى القرية، وناول الكاهن، الذي نقلت إليه «ويا» رسالة «سكاجيدي»، كيسه السحري إلى الصبي، ونظر إليه بعينين فضوليتين وقال:

«حسن، إذن. أرِنا ما تستطيع فعله».

أخذ «سكاجيدي» الكيس والتفت إلى الصيادين، وسأل زعيم القبيلة:

«أي حيوان تود أن تصطاد؟»

«الدب»، كان الجواب، وإذ بدب ناعس يخرج من الكيس.

«وأنت؟» سأل «سكاجيدي» ابن زعيم القبيلة.

«الظبي»، أجاب الابن، وما إن خرجت الكلمات من فمه حتى قفز ظبي جامح من الكيس وجثى عند قدميه.

أما البقية فكانت كحكاية خرافية: توالى الهنود الواحد بعد الآخر للإدلاء برغباتهم، بصعوبة استطاع مجاراتهم في فتح الكيس ليسمح للحيوانات بالخروج.

وأخيرا مد يده في الكيس، وفي قاعه لامست يده شيئا ناعما له ملمس الفرو، ولما أخرجها «سكاجيدي» وجد يد قضاعة. وبسرعة أعاد اليد إلى مكانها وانتعل حذاءه الثلجي وانطلق يبحث عن خيمة منقذه المجهول.

لم يكن يعرف أي وجهة يسلك، لكن حذاءه الثلجي قاده في الاتجاه الصحيح. وفي أطراف الغابة وجد كوخا صغيرا ذا سقف مستدير، كوخا لم يره من قبل هناك، لذلك ظن أنه حتما منزل صديقه المجهول. دخل، لكن الكوخ كان خاليا من سكانه. تناثرت بقايا سمك في أرض الكوخ ولفحت أنفه رائحة القضاعة. وضع اليد على الأرض وأسرع خارجا قاصدا بيته. إلا أن صوتا ناداه باسمه فأوقفه:

«سكاجيدي!»

التفت الصبي فإذا ببحيرة عظيمة تحتل المكان الذي كان فيه الكوخ منذ لحظة فقط.

«سكاجيدي»! كمكافأة لك على إنقاذك لأطفالي من براثن الوشق، لن يفقد كيس داداوات السحري مفعوله بعد اليوم. واليد التي جلبتها هي أيضا يدي».

«يدي، يدي، يدي»، سُمِعَ الصدى في الهضاب «لكن عليك أن تعلم أنه يجب ألا يضع أي منكم شركا لاصطياد القضاعة، وإلا فستفقدون صداقتي».

وفي هذه اللحظة سمع «سكاجيدي» صوت ارتطام بالماء، وشاهد على سطح البحيرة حلقات كتلك التي تخلفها القضاعة عندما تقفز في الماء. وانتظر قليلا لعل القضاعة تعاود الظهور،

لكن صفحة الماء ظلت هادئة لا يكدر صفوها شيء. وعند طرف الغابة رأى ويا التي أسرعت للقائه.

«ويا»، «ويا!» ناداها وهو يركض نحوها. أخبرها القصة كاملة، ثم أعادها على مسامع الآخرين عندما عادا إلى البيت.

ولم تعرف القرية العوز ثانية، إذ عاش الهنود الحمر في وئام مع القضاعة، وهكذا بقي كيس «داداوات» دائما عامرا.

الذئاب والظباء

في أحد الأيام اجتمعت كل ذئاب المنطقة على ضفاف نهر «ناس» للتحادث وتمضية الوقت. كانت هناك جِراء فتية، وزمر كاملة من الحيوانات البالغة، وكذلك ذئاب هرمة وحيدة كالذئب الرمادي.

فبدأوا أولا بغناء أغنياتهم الطويلة مما سبب صخبا عظيما أدى إلى هروب جميع المخلوقات من الغابات إلى حيث لا تسمع هذا الضجيج، فحفرت الأسماك في الرمال واختبأت تحت الأحجار. أما سمك السلمون فلم يرض بهذا الخيار، بل راح يندفع هنا وهناك محاولا أن يبتعد عن مصدر الضوضاء التي لا تطاق، إلى أن راح يقفز أخيرا فوق المنحدرات وشلالات المياه، شاقا طريقه بعكس التيار. يقال إنه كانت هذه بداية تعلم السلمون القفز فوق المنحدرات النهرية وتخطي كل عائق.

حتى الشمس وجدت أن عواء الذئاب هذا لا يطاق، فغربت بسرعة ذلك اليوم وخبأت رأسها في الغيوم لكي لا تسمع. لكن القمر اجتذبته حفلة الذئاب هذه إلى قمة أشجار الصنوبر، ففرحت الذئاب بهذا المستمع، وراحت تضاعف جهودها. لكن سرعان ما بُحَّ صوتها، فكان عليها أن تجد وسيلة أخرى لإمتاع نفسها. وكما هي الحال عادة في الحفلات، تروى ملاحم بطولية عفا عليها الزمن. وهنا قام المحاربون القدماء من الذئاب بعرض جراحهم على الذئاب الصغيرة، جراحا نالوها في ملاحم شهيرة عديدة.

وهكذا قضوا سحابة ليلهم يتحدثون ويتشدقون حتى ارتفع الضباب فوق النهر وأوشك فجر يوم جديد أن ينبلج.

في هذه الأثناء اجتمعت الظباء على الضفة المقابلة. كان الضباب قد حمل حكايات الذئاب إلى أسماعها ولم تتمالك الظباء نفسها عن الضحك رغما عنها، ذلك لأن الحيوانات لا تصدق إلا كلام أبناء جلدتها، لذلك جاء الرد الغاضب من الضفة الأخرى للنهر:

«من ذا الذي يجرؤ على التهكم من الذئاب البواسل؟».

لكن الظباء لم تَرْتدع، فواصلت ضحكها كأنها لا تنوي أن تكف عنه أبدا. ولم تشعر الظباء بخطر من الذئاب، محتمية بضباب الصباح. عندئذٍ، قفزت الشمس إلى قوس السماء، وفركت عينيها، فاختفى الضباب في الحال.

«مرحبا أيتها الظباء»، صرخت الذئاب من الضفة الأخرى. «إنكم لا تجيدون حتى الضحك، انظروا»، وكشرت عن أنيابها التي لمعت في ضوء الشمس بصورة مخيفة.

«ها، ها، ها!» ضحكت الذئاب وردَّد الغاب صداها.

«والآن جاء دوركم!» صاحت الظباء «ممم، مم، مم». حاولت الضحك وأفواهها مسدودة، مما جعل الذئاب تضحك بصخب أكبر من ذي قبل.

"ها، ها، ها!" صرخت الذئاب. «عليكم أن تفتحوا أفواهكم إذا أردتم أن تضحكوا كما يجب!»

«ممم، ممم، ممم!» حمحمت الظباء ثانية مكشرة عن فُكوكٍ شبه درداء. فخطر للذئاب خاطر: «إذن لهذا لا تستطيع الظباء أن

تضحك كما يجب». وسال لعابها لمنظر هذه الفرائس السهلة، وفي طرفة عين، دبت الذئاب في الماء قاصدة الضفة الأخرى.

ففرت الظباء من دون انتظار، لكن الذئاب اقتفت أثر رائحة الظباء وطاردتها ولا تزال إلى يومنا هذا.

ومنذ ذلك الزمان عرفت الذئاب أن الظباء فريسة سهلة لا تستطيع مقاومة أنيابها.

الأرنب والسِّنورة

كانت السِّنورة شديدة الجوع وقد شاء لها الحظ ألا تصطاد ولو فأرة ذلك اليوم، لذا أخذت تستعد لتغير على القرية الهندية القابعة عند قدم صخرة الرياح لعلها تجد شيئا، فإذ بها تحظى بأرنب نائم.

لم تصدق ما ترى. فها هو الأرنب يغط في قيلولة وسط لهيب الظهيرة، فيهتز شارباه على أنغام شخيره. ياله من فريسة سهلة!

«أرنوب، أرنوب!» صرخت السِّنورة، وهي تمسك ظهر الأرنب بيدها، فاستيقظ المخلوق المسكين مرتعدا، وتمنى في الحال لو كان على بعد ألف ميل من هنا.

«عليك أن تشكرني على إيقاظك، لأن النوم تحت الشمس هكذا مضر بصحتك». قالت له السنورة. «لكني أجد نفسي مضطرة جدا لأكلك، فأنا جائعة جدا».

وبدأ الأرنب يرتعد من الخوف. «لو تركتني، لأرشدتك إلى فريسة أفضل مني بكثير، فماذا تقولين؟» قال لها متوسلا.

«حسنٌ، سنرى!» ردت السنورة، لكنها ضغطت على ظهره قليلا تحسبا لأي محاولة ماكرة يقوم بها الأرنب للانفلات.

وفي هذه الأثناء سمعا بعض اللغط على مقربة منهما.

«هل سمعتِ؟» قال الأرنب. «إنها ديكة رومية، لا يبعد طريقها سوى بضع خطوات من هنا. لن تستطيعي أبدا أن تهتدي إليها بمفردك. لكني سأقودك إليها».

فراقت الفكرة للسنورة، لكنها في ذات الوقت حذرت الأرنب: «لا تعتقد أنك ستنجو من قبضتي!» أما الأرنب فقد عرف أن الخطر زال.

«هيا بنا. يجب ألا نتأخر»، ألح عليها، محاولا اغتنام الفرصة. «استعجلي!».

«في كل الأحوال ستهرب قبل أن نصل إلى هناك»، قالت السنورة وهي يساورها الشك.

«قطعا لا. ما عليك إلا أن تستلقي في طريقها وتتظاهري بالموت، وحينها تستطيعين أن تتأني وتحسني الاختيار. اتبعيني. وإياك أن تحدثي أي جلبة».

فتسللا خلال الأعشاب الطويلة كزوج من الأشباح وما هي إلا دقائق معدودة حتى وصلا إلى طريق الدِّيكة الرومية، فأشارت الأرنب إلى السنورة:

«استلقي هنا وتظاهري بالموت. الديكة آتية».

فاستجابت السنورة بسرعة لما أُمرت به، فمددت نفسها على الطريق وأغمضت عينيها. وذهب الأرنب للقاء الديكة الرومية، وكان لقاؤه بها مواتيا، إذ تم عند أول منعطف، فحياها قائلا:

«القوة لكم. لقد قتلت لِتوي سنورة».

فلم تصدقه الطيور الرومية، فقال زعيمها: «لا نصدق حتى نرى. تعال وأرِنا».

«المكان على مقربة من هنا، وإن كنتم خائفين، أنصحكم بعدم الاقتراب».

بطبيعة الحال لن يخطر ببال أي ديك رومي أن يعترف لأرنب أنه يخشى أي شيء. وهكذا ساروا في نسق هندي حتى وصلوا إلى حيث تستلقي السنورة متظاهرة بالموت، فتبجح الأرنب:

«لقد أرسلتها بفضل فأسي إلى مرابع الصيد الأبدية».

فكركرت الديكة من فرط إعجابها، ولم تستطع أن تشبع ناظريها من السنورة، إذ لم يتسنى لها من قبل أن تمعن النظر في السنانير على هذه المقربة.

تقهقر الأرنب قليلا ومن مسافة آمنة انتظر ما سيحدث، لكن انتظاره لم يدم طويلا؛ إذ سرعان ما اندفعت يد السنورة بعنف وأمسكت بأسمن دجاجة وانطلقت بها إلى أقرب شجرة.

تفرقت الطيور الرومية في كل ناحية، وهي تكركر غاضبة من السنورة الماكرة والأرنب الغادر.

وعندما التأم شمل الطيور في فسحة ما، أعلن زعيمها وهو يستشيط غضبا: «سننتقم لأنفسنا!» ثم انتقى عددا من أعتى المقاتلين وانطلق معهم بلا توانٍ لمطاردة الأرنب.

وسرعان ما نسي الأرنب القضية برمتها وراح يقضم العشب بهناء. وعندما رأى جيش المحاربين من الطيور الرومية بطلائها المرعب يقترب منه ولى الأدبار مسابقا الريح علّه يفلت من مطارديه. راح يعدو بين الأدغال فتبعته الطيور الرومية، وقفز فوق جدول، لكنها ظلت تتعقبه. عندئذ فكر في الاختفاء في جحر الغُرَيِّر. لكنه قبل أن يتمكن من الدخول لحق به زعيم الطيور الرومية وداس على ذيله بقسوة فمزقه. وهكذا فقد الأرنب ذنبه الطويل، فانطوى على نفسه داخل جحر الغرير حزنا على ذيله

المجـدوع الصـغـيـر. فـوضـعـت الديكة ذيل الأرنب عـلى رأس رمـح طويل كما لو كان غنيمة حرب وحملوه مزهوّين بالنصر.

إلا أن الأرنب لم ينـزعـج كثيرا بسـبب خسـارته، إذ تبين لـه أن ذيله القـصـيـر يسـهل عليه الهـرب، لذلك حـافظ عليـه هكذا إلى يومـنـا هـذا. لكنـه لم يسـتطع أن يغـفـر للسـنـورة تركـهـا له خـالي الوفـاض هكذا، ولهـذا فـكر في أكـثـر من وسـيلـة لتـصـفـيـة حسابه معها.

وسـرعـان ما واتتـه الفـرصـة؛ ففـي اليـوم التـالـي بينمـا كان يقـفـز هنا وهنـاك على الطريق سمع شخيرا، وعنـدمـا اقـتـرب ليسـتقـصـي الأمـر وجـد حـصـانـا هـانـئـا في رقـاد عـمـيق، مما دفـع الأرنب إلى الاعتقاد بأنه لن يستيقظ قبل مرور وقت طويل.

وهـكـذا حث الخطـى إلى الشـجـرة التي تـتـخـذ السنورة منـهـا مسكنا، ونـاداهـا مُسَلِّمـا عليهـا:

«هل أنت هنـا؟»

«أنـا هنـا. مـاذا تريـد؟» ردت السنورة.

خـفـض الأرنـب صـوتـه وقـال: «هـنـاك فـريسـة كـبـيـرة، انـزلـي وسـأهمس لك عن مكان وجودها».

فقفزت السنورة من غصن الشجرة إلى الأرض.

«هيا، قل لي!» قالت السنورة وهـي ترتجف من الجزع.

«هنـاك حـصـان مـيـت على قـارعـة الطريق، ولم يعـثـر عليـه أحـد بعـد. أنا شـخـصـيـا نباتي لا آكل اللحم، ولهذا فكرت فيك أولا».

«لا تدعنا نضيع دقيقة أخرى، إذن»، صـاحـت السنورة وهـي تتخيل أياما قادمة عامرة بالموائد الشهية. وراحت تعدو وراء الأرنب.

كان الحصان لا يزال يغط في نومه، فقال الأرنب:

«لا نستطيع أن نتركه هكذا، لكن عندي حل، سأربط ذيلك بذيله. استديري!»

وعندها ربط الأرنب ذيل السنورة مع ذيل الحصان وأحكم الربط.

«حسنٌ، لقد انتهيت»، قال للسنورة «والآن عليك أن تأخذيه إلى البيت».

وأخذت السنورة تجر بكل ما أوتيت من قوة. استيقظ الحصان وحاول أن ينهض على قدميه؛ فصرخت السنورة من الهلع، وأفزع الصراخ الحصان الذي ظن أن الشيطان بعينه قد أمسك به، فراح يعدو بأسرع ما يستطيع. وراحت السنورة تزعق وتصرخ، وراح الحصان يعدو أسرع فأسرع لعله يتخلص من الشيطان الذي يمسك بذيله. وسرعان ما تلاشى كلاهما وراء سحابة من الغبار.

وضحك الأرنب حتى لم يجد للضحك سبيلا.

«لعل قليلا من الأورام الجيدة على رأسك سيلقنك درسا!» قال الأرنب للسنورة الغائبة، ثم راح يبحث عن مغامرة جديدة.

كيف صار للثعبان أنياب سامة

حدث هذا في زمن قصير بعد أن خلق «سيباس» الجبار الحيوانات وأعطاها كل ما تحتاج إليه لحياتها، فأعطى النسر أجنحة مكينة، والظبي أرجلا سريعة، والدب قوة عظيمة. ظل الثعبان «كاسور» وحده أعزل بلا سلاح. كان كل ما يستطيع فعله هو أن يحاول اصطياد الذباب، وحتى هذه سخرت منه وتحرشت به لأنه لم يكن لديه ولو سن واحدة.

وتفنن في تعذيب الثعبان حتى الأرنب الذي يُعرف بكل الخصال إلا الشجاعة، فمرة يدفنه في الرمال، ومرة يلقيه في النهر. ولم تكن معجزة هينة أن ينجو «كاسور» من هذه المصائب والمهالك جميعها.

وبحكمته وصبره عرف الثعبان أنه لا معين له سوى «سيباس» العظيم.

وعندما نامت جميع الحيوانات الأخرى، زحف إلى مسكن سيباس. وسار طوال الليل متخطيا صخورا كبيرة اعترضت طريقه حتى وصل عند شروق الفجر إلى الكهف الكبير.

كانت نار مقدسة تأج في وسط الكهف ويملأ دخانها الأرجاء برائحة قوية. كان «سيباس» يجلس على مقربة من النار ورمق الثعبان بعين ثاقبة، وبادره بالسؤال:

«إلام تأتي إليّ؟».

فرد الثعبان: «إنني شقي جدا، ولا أقوى على الدفاع عن نفسي عندما يؤذيني الآخرون أو يسخرون مني، فأنا لا أملك القوة لقتالهم، ولا السرعة للهروب منهم، ولست ضئيل الجسم لأتوارى عن أنظار أعدائي، وليس سواك بقادر على عوني، وإلا فالموت مصيري».

«أجل. سأساعدك»، رد سيباس. «اقترب مني».

فزحف «كاسور» مقتربا من النار، ونهض «سيباس» على قدميه، فغشّى نفسه بالدخان، وقال بضع كلمات سحرية. وبينما هو يتلو تراتيله، التقط عدة جمرات حمراء، ثم لفها ببعض من أشعة شمسية قصيرة اقتطعها لهذا الغرض، ثم أمر الثعبان:

«افتح فمك!».

وفي الحال شعر كاسور بأسنان حادة كالإبر تنغرز في فمه.

«إن لك الآن سلاحا مرعبا حقا! في أنيابك السم الذي لا منجاة منه لأحد تلدغه. بمثل هذا السلاح يسهل عليك الدفاع عن نفسك».

وبهذه الكلمات حمل «سيباس» «كاسور» خارج الكهف وعاد إلى ناره المقدسة.

عاد الثعبان يزحف ببطء إلى بيته غير آبه بتحرشات الآخرين، إذ لا خوف عليه بعد اليوم. وفي طريقه التقى الأرنب، الذي ناداه من بعيد:

«انظر من هنا: صديقي القديم «كاسور»! أين وِجهتك، إن سمحت لي بالسؤال؟»

«أنا في طريقي إلى منزلي»، رد الثعبان وحاول أن يتفادى الاصطدام مع الأرنب.

«ألا تريد أن تلعب؟» قال الأرنب وهو يقف في طريقه. وفجأة غرز أسنانه الحادة في ظهر الثعبان.

«اتركني وشأني، وإلا فستندم»، قال «كاسور» محذرا.

«الله، الله»، ضحك الأرنب. «ساخرا، وهل تعتقد فعلا أنني أهابك؟»

وبلا إنذار آخر، انتفض الثعبان وضرب معذبه، وقبل أن يدرك الأرنب ما الذي يجري، قتله الثعبان بأنيابه المسمومة، ثم تابع مسيره إلى بيته مطمئنا.

كان لموت الأرنب صدى بث الرعب في عالم الحيوان، فراح كل حيوان يداري «كاسور». وتساءلوا عمن وهب الثعبان هذه القوة الفتاكة.

قال الضفدع: أنا أعرف «سيباس» بذاته وهبه تلك القوة».

تلى ذلك صمت لم يطل، ثم صاح أحدهم، وإن كان يصعب علينا الآن أن نحدد من هو، فقال:

«لنذهب لقتل سيباس!»

«أجل، دعونا نذهب لنقتل «سيباس!» تنادى الآخرون وهم يسيرون باتجاه الكهف الذي يسكن فيه «سيباس».

أما «كاسور» فلم يتوان ثانية واحدة، ولما كان يعرف الطريق أفضل من أي منهم، تمكن من الوصول إلى الكهف قبلهم، فحذر «سيباس» مما يُدبَّر له.

«علينا أن نطير حالا»، كان قرار «سيباس»، «هناك مسرب تحت الأرض، ندخله من هذا الكهف إلى حيث الأمان».

في هذه الأثناء، وصلت الحيوانات إلى الكهف محدثة ضوضاء عظيمة عند مدخله.

هيا يا «كاسور»، خذني على ظهرك وانطلق بي بأسرع ما تستطيع».

رفع «سيباس» يده وقال عبارة سحرية، فانفتحت أمامهما حفرة لا يُرى لها قرار، وحالما دخلاها انغلقت الأرض وراءهما غير تاركة أي أثر.

ولما اقتحم المطاردون الكهف تسمروا في أماكنهم مصعوقين. إذ كان الكهف خاليا تماما. فتشوا كل زاوية فلم يجدوا شيئا، لقد ذهب سياسي، فكان عليهم أن يعودوا أدراجهم وهم يجرون أذيال الخيبة.

وهكذا يُفسر سبب هروب سيباس إلى العالم السفلي المظلم، ومع أنه أعاد كاسور إلى وجه البسيطة، فلم يرجع هو أبدا ومازال يعيش هناك حتى الآن.

وعندما يتثاءب تنفث البراكين دخانا، وينطلق الرماد من فوهاتها، وتتصب الحمم في الوديان. وعندما يتحرك تهتز الأرض فتتفلق الصخور، وتميد الجبال، وتفيض الأنهار فتغمر السهول، فيتملك الإنسانَ والحيوانَ خوف ورعب.

الظربان والروح الشريرة

كان هناك إله شرير يدعى طويل المخلب، يعيش في أقصى أطراف بلاد الهنود.كان بحق روحا شريرة وخطيرة وهو قادر على قتل من يشاء بمخلبه. له قوة الدب وهو كثير الشبه به، لولا مخالبه الطويلة ذات اللون الأرجواني.

كان طويل المخلب قادرا على كل شيء ما عدا السباحة، ولهذا كان الذين يهاجمهم، سواء أكانوا حيوانات أم هنودا، يلتجأون إلى الماء واستطاع كثير منهم أن ينجو بجلده.

كان الجميع يخافه باستثناء حيوان صغير غير ذي بال.

ترى ما المخلوق الذي لا يعرف الخوف؟إنه الظربان الذي تعمَّد أن يتجول بجوار كهف طويل المخلب لكي يبارزه.

وفعلا التقيا ذات يوم خارج جحر الظربان. كان هذا يجلس على جذع شجرة مقطوع مستمتعا بدخان غليونه عندما جاء طويل المخلب يبحث عن فريسة.

«أنت، ألا تخشاني؟» صاحت الروح الشريرة.

لكن الظربان لم يحرك ساكنا، بل واصل جلوسه وتدخينه كأن شيئا لم يكن.

«هو هو، اهرب إن كنت تحب الحياة»، صاح طويل المخلب وهو يلوح بيديه أمام أنف الظربان.

«أغرب عن وجهي أيها المسخ»، قال الظربان بهدوء وهو يسحب الغليون من فمه. «إني أراقب العشب ينمو وها أنت تأتي لتدوسه».

«مـا ـ ذا؟» ردت الروح الشـريرة. «مـاذا قلت، أيتـهـا الحـشـرة الصـغيـرة الوقـحـة؟ سـأمـزقك إربا إربا، وسـأجـعل منك شُـرَّابات لحذائي. سأتهمك مثلما ألتهم خوخة ناضجـة. عليك أن تخافني، أجل، أن تخافني. هيا».

«لن يكون لك هذا حتى لو راهنت بحياتك!» أجاب الظربان.

«لن يكون لـي هذا؟ مـاذا تقـصـد؟ سـأحطمك كـمـا أحطـم درعـا هنديا. انظر!».

والتقط طويل المخلب حجرا ضخما ثم فتته بضربة واحدة إلى مائة شظية.

«هل هذا كل ما لديك؟» قال الظربان بازدراء وهو يملأ غليونه.

«حسنٌ، إذا كنت مصرا حقا على منازلتي، فليس لدي مانع». ثم قفز من مقعده إلى الأرض. «ما شروط النـزال؟».

«سـأرسلك إلى مـرابع الصـيـد الأبدية بأربع ضـربات لا غيـر»، تبجح طويل المخلب.

«حسنٌ، لك الأربعة الأولى، بعدها سيأتي دوري لضربك».

«لن تعيش طويلا لكي تفعل ذلك»، توعد طويل المخلب، ثم باعد بين رجليه وكال للظربان الضربة الأولى.

كانت ضربة مـروعـة غرسته في الأرض حتى ركبتيه، وقبل أن يصحو من وطأتها، ناوله طويل المخلب ضربة ثانيـة ثم ثالثة، ولم يبق من الظربان فوق الأرض سوى الرأس. وجاءت الضربة الرابعة كالصاعقة فاختفى الظربان في الحفرة العميقة.

«مـهـلا حـتـى أخـرج»، نادى على الروح الشـريـرة. «سـأرد لك الصاع صاعين».

«وماذا عليك أن تفعل لتؤذيني؟» ضحك طويل المخلب، لكن مزاجه تعكر قليلا عندما تذكر أن خصمه لا يزال حيًّا.

«حسن، لن أضربك»، قال له الظربان. «لن أتكلف برفع إصبع واحدة في وجهك. كل ما علي أن أفعله هو أن أطوف حولك أربع مرات على التوالي».

«آمل ألا تظن أن ذلك يقلقني»، قال طويل المخلب بازدراء. «تستطيع أن تطوف حولي بعدد ما يحلو لك، أما أنا فسآخذ قيلولة في هذه الأثناء».

ثم استلقى على الأرض بارتياح. استخرج الظربان قليلا من بهار من كيس تبغه ثم ملأ غليونه به، وهو يتمتم ببعض التراتيل.

ثم شرع يطوف حول الروح الشريرة. «هل أنت خائف مني؟» سأل عندما أكمل طوافه الأول.

قال طويل المخلب بصوت ناعس: «ليس البتة».

تمتم الظربان: «أنوناني»، هيا اخرج يا «أنوناني!».

في تلك اللحظة خرجت سحابة دخان تزمجر من غليونه، وفي الحال أحاطت بالروح الشريرة، بل الأسوأ من ذلك هو أن رائحة كريهة مرعبة ملأت عينيه وفمه ورئتيه، لم يستطع التخلص منها بالرغم من كل محاولاته.

«آخ، آخ»، صاح وهو يقفز من شدة الألم.

«لقد قتلتني»، ثم سقط ميتا على الأرض.

وفرح الظربان فرحا عظيما بانتصاره، وعلى سبيل الذكرى قطع مخالب الروح الشريرة الطويلة وجعل منها قلاده له. فأراد أن يريها لكل جيرانه، لكن أنوناني، تلك الرائحة

الكريهة، كانت ترافقه أينما ذهب مما جعل الجميع يهربون منه. ولهذا لا أحد سوى قبيلة الظربان يعرف عن معركة جدهم الشهيرة مع طويل المخلب، تلك الروح الشريرة. وهم وحدهم الذين لا يجدون حرجا في أنوناني، بل على العكس يجدون فيه خير حليف يدفع عنهم أعداءهم.

الفراولة

كان هندي يعيش مع زوجته في خيمة صغيرة بجانب الجدول الشاكي. وبخلاف رفاقه، كان ذا طبيعة مشاكسة، وربما يعود ذلك إلى خرير الجدول الدائم أو إلى الريح التي كانت دائما تئز بين فجوات الصخرة الباكية. كان يثرثر ويهرف من الصباح إلى المساء.

حتى عندما يذهب إلى الصيد لا يكف عن الثرثرة، فمثلا تراه يتربص لظبي، فيرى طير العقعق على غصن فوق رأسه فيسخر منه، لذلك لا غرابة إذا تفادت الغزلان هذا المكان الذي يعج بالضجيج المتواصل.

أما زوجته فكانت ترى منه الأمرَّين. فهي لا تعرف راحة البال معه، إذ كان المنكود يصرخ غاضبا حتى في نومه. والمثل يقول على المرء أن ينتعل حذاءه حتى يهترئ، وكذلك الأمر مع الزوجة التي ظلت تعاني طويلا إلى أن جاء يوم نفد فيه صبرها فلم تعد تطيق زوجها العنيد ذا الأخلاق السيئة، فقررت أن تهجره. ولما كانت لا تعرف أين تذهب، قررت أن تسير بمحاذاة الجدول الشاكي متبعة مسار الشمس.

ولم يطل المقام بصاحبنا الهندي قبل أن يكتشف أن زوجته هجرته، إلا أن عناده زيَّن له أنها لا محالة عائدة إليه قريبا، لذلك راح يعد العدة ليوبخها شر توبيخ.

ومضى يوم، ثم اثنان، فثلاثة، وفي صباح اليوم الرابع ذهب الهندي إلى الجدول الشاكي يستشيره، وبدلا من أن يعطيه الرد

المناسب كل ما قاله له هو: «اتبع الشمس». وهكذا انطلق في الاتجاه الذي حدده الجدول.

«الجدول الشاكي على حق»، قالت الشمس. «إن زوجتك تتبعني ولا تريد أن يكون لها شأن معك بعد اليوم».

امتلأت نفس الهندي بالأسى، فأطلق وعدا: «لن أخاصمها ثانية أبدا. أرجوك، قولي لها أن تعود إليَّ».

«لا أدري»، ردت الشمس. «لكن إذا كنت تنوي حقا أن تلتزم بوعدك، سأرى ماذا يمكنني أن أفعل. والآن قابلها في منتصف الطريق».

لم يتردد الرجل، بل راح يعدو متتبعا أثرها. سار ليلا ونهارا ولم يتوقف ليأكل أو ينام. مع ذلك، ما كان له أن يلحق بزوجته لولا مساعدة الشمس الجبارة له.

كانت الزوجة تسير شرقا وقد نسيت زوجها تماما.

«علي أن أجعلها تلتفت إلى الوراء، فليس هناك من طريقة أخرى تجعلها تتذكره»، قالت الشمس في سرها. «ولن تلتفت إلا إلى شيء لم تره عيناها من قبل. نعم لقد وجدت الحل. سأزرع بعضا من العُلّيق».

وفي تلك اللحظة نبتت بمحاذاة الطريق غابة من أشجار العُلّيق محملة بثمار سوداء مغرية، لكن الزوجة لم تنتبه إليها مطلقا.

«لعل تلك الشجرة تشد انتباهها»، قالت الشمس وأعدت للزوجة مفاجأة أخرى.

لا يمكن أن نتصور إنسانا يستطيع أن يمر بمثل هذه الشجرة الرائعة مرور الكرام، إلا أن الزوجة مرت على عجل وبلا توقف.

«لا أظن أن لدي أي جديد آخر»، قالت الشمس بيأس، ثم فجأة علت وجهها بهجة وبشاشة: «آه، بالطبع، فراولة! كيف لي أن أنسى ذلك؟» .

وبسرعة انتقت الشمس من الفراولة أطيبها وأكبرها ورشتها بقطرات الندى ثم زرعتها على جانب الطريق. وتوقفت الزوجة. أوقفتها تلك الرائحة اللذيذة المنبعثة من الفراولة الطازجة.

«تُرى، ما مصدر هذه الرائحة العذبة؟» قالت ذلك، ثم رأت عندها الفراولة.لم تستطع مقاومة الإغراء، لهذا ركعت على ركبتيها وبدأت تلتقط الفراولة. وعندما انتهت من التقاطها جميعا، وقفت ونظرت وراءها. في هذه الأثناء كانت الشمس الذكية قد زرعت الفراولة في الأماكن التي مرت بها لتوها، وهكذا جعلتها تعود قليلا لتقطف تلك الفاكهة الحمراء الرائعة. وبينما هي كذلك، شعرت فجأة بالحنين إلى وطنها وتمنت لو كانت بجانب زوجها.

في هذه اللحظة لم تعد تريد أن تهرب، بل على العكس، كانت رغبتها الوحيدة هي أن تعود إلى بيتها ثانية. فانطلقت عائدة بعد أن جمعت لزوجها كمية من أطيب ثمار الفراولة وألذها. وقبل أن تتورد خدود الجدول الشاكي بانعكاس غيوم المساء، لقيت زوجها آتيا في الاتجاه المعاكس، مقطوع الأنفاس ومنهكا من أسفاره.

كانا سعيدين جدا بلقائهما، فتشابكت أيديهما، وسارا رويدا رويدا إلى الصخرة الباكية، حيث لا يزالان يعيشان بهناء وسعادة إلى يومنا هذا، والعهدة على الراوي.

قد تتساءلون عن مصير الفراولة. حسن، لقد انتشرت في طول البلاد وعرضها لكي يتسنى لكل إنسان أن يتذوق طعم ثمرتها اللذيذ.

القيّوط والبيسون

في يوم من الأيام وجد القيّوط جمجمة بيسون.كانت الجمجمة ملقاة في أحد المروج وكانت الشمس قد صيرتها بيضاء، ولم تخطر في بال أحد من قبل.

كان القيّوط فضوليا معروفا، لذلك قام بفحص ذلك الشيء الغريب من كل جهاته. وخطر له خاطر بأنه لا بد أن يكون هناك كنز بداخله، فبحث عن حجر يكسر الجمجمة به.

كان من الأجدر به ألا يفعل ذلك؛ فمن الضربة الأولى صارت العظام ترابا، وكان ذلك كل ما وجد من ثروته التي تصورها. ولدى سماعه دوي الحوافر، نظر إلى الأعلى وارتعد خوفا، فإذا بشريط من غبار أحمر ينبئ بتوجه قطيع من البيسون نحوه.

وراح القيّوط يدور في دوامة اليأس وهو يستغيث: «أيتها الأرواح الخيرة، أنقذيني، أنقذيني. صَيِّريني جُدعة شجرة».

وفي الحال، انتصبت جدعة صغيرة جوفاء في مكان القيّوط، فتخطاها القطيع من دون أدنى انتباه إلى القيّوط، إلا أن آخر ثور تعثر بالجُدعة فثارت ثائرته. أخفض الثور رأسه الهائل وانقض على الجُدعة الآثمة، فتوسل القيّوط ثانية إلى الأرواح.

«أيتها الأرواح الخيّرة، اجعليني حجرا».

ولكن من دون جدوى، إذ تلقى رفسة عنيفة ثم رأى البيسون الهائج يقف على قدميه الخلفيتين استعدادا لمحي ذلك الحجر من الوجود.

«أيتها الأرواح الخيّرة، اجعليني شُجيرة»، توسل القيّوط إلى الأرواح التي آزرته مرة أخرى.

وتبين للبيسون أنه لا جدوى من قوته أمام أشواك الشجيرة التي راحت تلسع جلده مانعة إياه من اجتثاث الشجيرة من جذورها. لذلك اقترح المصالحة:

«دعنا نتصالح، لكن أود أن أرى هيئتك الحقيقية لكي نصبح أصدقاء».

فقفز القيّوط من الشجيرة في الحال وناوله، خوفا من تراجع البيسون، غليون السلام.

«أجل، دعنا نتصادق»، قال البيسون موافقا. «ولكني بحاجة إلى مساعدتك».

«بكل سرور»، أجاب القيّوط. «ماذا يمكنني أن أقدم لك من خدمة؟»

«لقد سرق مني القطيع بقرتين، وعليك أن تجعل قروني حادة، وبعدها ننطلق في سبيل الحرب سوية».

«إنني محارب جيد ولدي الكثير من الغنائم في بيتي»، قال القيّوط متبجحا. «إني أهنئك على تحالفك معي». ثم راح يَسن قرون البيسون ببراعة فائقة.

«سأقوم بأعمال الاستطلاع نيابة عنك». قدم عرضه هذا، ثم جرى إلى هضبة قريبة متلفتا يمنة ويسرة».

كان قطيع البيسون ينام على مقربة منهما، فنادى القيّوط:

«هيَّا، هيَّا. إنَّ أعداءنا نيام، دعنا نأخذهم في غفلة منهم».

زمجر الثور ثم انقضَّ إلى الأمام، أما القيّوط فلم يكن في

عجلة من أمره لينخرط في المعمعة، بل آثر أن يختبئ حتى تنجلي الأمور.

وما إن نشبت الحرب حتى حبس أنفاسه جزعا، إذ كانت الأرض تزلزل تحت وطأة الحوافر المغيرة، وكان دوي القرون المتطاحنة يشق عنان السماء.

ثم ساد الصمت ثانية، وسمع القيّوط وقع خطى آتية نحوه. ولما نظر من مخبأه رأى البيسون عائدا مع بقرتين، فصاح به القيّوط:

«لقد أبليت بلاء حسنا، يا صديقي. أما أنا فقد أفرغت جعبتي على خصومك». فرد البيسون متشككا:

«لم أرك تطلق سهما واحدا».

«لم أطلق سهما واحدا؟ لقد أنقذتك من الموت على الأقل أربع مرات».

كذب القيّوط بلا خجل. «والآن عليك أن تقاسمني الغنيمة».

وشاء البيسون أم أبى، وجد نفسه مضطرا إلى أن يعطي القيّوط أصغر البقرتين.

كان الوغد المحتال يُمنّي النفس بشواء رائع، لذلك كان متلهفا للرحيل، فقال مودعا:

«ليكن مانيتو معك، يا صديقي. أرى أنك مشغول ولن أؤخرك أكثر من هذا».

وقبل أن يتمكن البيسون من الإجابة، كان القيّوط قد اختفى مع البقرة بين الأعشاب الطويلة.

وما إن تلاشى وقع أقدام صديقه، حتى أسرع إلى قتل البقرة وسلخها. وتعب كثيرا من جراء هذا العمل المضني، فقال لنفسه:

«علي أن أنام قليــلا قــبل تناول طعــامـــي، إذ نال مـــني التعــب كثيرا».

وهكذا التف على نفسه أرضا ثم راح يغط غطيطا عـجيـبا رددت صداه المروج. فحلم حلما عن مدى ذكائه ومكره، بل حلم أن ذكاءه يفوق بكثير ذكاء جميع الحيوانات.

ومن سوء حظه أن ذلك لم يكن إلا حلما، إذ بينما كان يغط في نومه مرت مجموعة من الذئاب من هناك، وعندما استيقظ لم يجد من بقرته سوى كومة من العظام الخاوية، فاستشاط غضبا.

«أي لص تجرأ على أن يفعل بي هكذا؟» صاح بغضب. لكن المروج ردت على سؤاله بصمت عميق.

ولما كان جوعه شديدا، حاول أن يعزي نفسه بمص نقي العظام، التي هي كل ما لديه الآن. «لقد عرفت ما يجب أن أفعله. سأجد حجرا وأستخدمه للحصول على النقي».

لكنه ما كان ليحصل حتى على هذا، إذ قبل أن يعود بحجره هذا، جاء غرير ومص نقي العظام جميعا غير تارك وراءه أدنى ذرة.

ما العمل يا ترى؟ جلس القيّوط كئيبا جائعا، كسير الخاطر، مثالا للتعاسة. فخطرت له فكرة:

«لعلي أدق العظام وأجعل منها مسحوقا». فضرب بحجره فتكسرت العظام وتطايرت في كل حدب وصوب.

«لو كان لك منقار فقط، لو كان لك منقار فقط»، صاح أحدهم فوق رأسه. ولما نظر إلى الأعلى وجد عدة غربان تحوم في الجو.

«لقد جئتم في الوقت المناسب»، خاطبها القيّوط، ثم توسل إليها.

«من فضلكم، اطحنوا لي العظام بمناقيركم وسأعطيكم نصفها».

«حسن، حسن. آتنا بملعقة، نعم، آتنا بملعقة»، قال كبير الغربان.

فأطاع القيّوط وذهب، ومن حسن حظه لم يطل بحثه، إذ وجد ملعقة على مقربة منه مهجورة في ديار مخيم هندي.

عاد وهو يبلع ريقه وأرجله تضطرب تحته من شدة الجوع. وخاب أمله للمرة الثالثة، فلم يجد عظاما ولا مسحوقا، بل غربانا تحوم حوله، وقد اكتست مناقيرها بالبياض.

«ها، ها، قا، قا، قا»، كانت الغربان تنعق.

قذف القيّوط الغربان بالملعقة بغضب.

لو أنه فقط يستطيع أن يصيب واحدا من تلك اللصوص البائسة!

«ياله من غبي، ياله من غبي! قا، قا»، جاء رد الغربان من فوق.

لم يبقَ أمام القيّوط سوى الهروب بأسرع ما يستطيع، لعله يسبق عاره الذي ظل يلازمه كظله.

القيّوط وأنثى والثعلب والجبنة

إني أعلم جيدا أنه ليس من الحكمة أن أروي قصة أخرى عن القيّوط، إذ إن هذا يكاد يكون مدعاة للنحس، أليس كذلك؟

فالمشكلات ترافقه أينما حل، وهي عادة من صنع يده وتنتهي دوما بعقابه. فمثلا حدث أن التقى في أحد الأيام ثعلبة فوق تلة حدباء، كانت تجيل النظر في الريف، وفجأة رأت شيئا مثيرا للاهتمام من بعيد، وانتصبت على قدميها.

«ماذا ترين هناك؟» سأل القيّوط وهو يقترب مُنها بعينين بارزتين.

«بركة جميلة»، ردت أنثى الثعلب. «يا سلام، كيف تلمع. أنا متأكدة أنها هي. هذا ما كنت أبحث عنه منذ وقت طويل».

«ولكن لماذا، قولي لي؟» سأل القيّوط وهو يمط رقبته ويتلفت يمنة ويسرة.

«ليس هذا بالأمر السهل»، ردت أنثى الثعلب. «إذ لو أخبرتك، فعليك أن تكتم ما أقول».

«ستجدينني صامتا مثل قبر، بل مثل عشرة قبور!» صاح القيّوط وهو يرتعد من الفضول.

«على أي حال، يجب أن أستشير الأرواح»، راوغت أنثى الثعلب وهي تدير ظهرها للقيّوط لكيلا يرى ماذا تفعل، ثم أخذت أصابع يدها اليسرى وبدأت تعد: «سأخبره، لن أخبره، سأخبره، لن أخبره، سأخبره».

«لقـد أذنت لـي الأرواح بإخـبـارك»، قـالت أنثى الثـعلب وهـي تستـدير نحـوه. «الآن اصغِ إلـي، لقـد سـمـعت أن كـتلة مـسـتـديرة وكبيرة من الجبنة تعوم على سطح تلك البركة كل ليلة».

فسقط القيّوط على كفله من الدهشة، وصاح: «إذن، فلماذا الانتظار؟ هيا نتسابق إلى هناك، ومن يصل أولا، يأخذ القطعة الأولى الكبيرة».

ومع أن أنثى الثعلب تظاهرت بعدم استحسانها للفكرة، زاعمة أن اقتراح القيّوط غير عادل نظرا لطول ساقيه، فقد وافقت في النهاية.

وانطلق القيّوط وكأنه يطير، بينما ظلت أنثى الثعلب في مكانها في الهضبة الحدباء، وهي تسخر بصمت من القيّوط.

«لماذا كل هذه العجلة، أيها الأحمق؟ في كل الأحوال، عليك أن تنتظر حتى المساء، أيها الطائش».

وظل القيّوط يعدو حتى وصل إلى البرك، وجال بناظريه فوق البركة المتلألئة، لكنه أنى نظر لم يجد الجبنة. عندئذٍ تذكر ما قالته أنثى الثعلب، ثم قال في نفسه: «لا بأس، سأنتظر حتى المساء». وهكذا جثى على الضفة وظلت عيناه تراقبان الماء لكيلا يفوت الغنيمة من يده.

وعند الغسق وصلت أنثى الثعلب تمشي الهوينى، وفي هذه اللحظة بالذات طفت على السطح كتلة جبنة مستديرة تسر الناظرين بحجمها واستدارتها.

«حسنٌ، هيًّا، القضمة الأولى لك، إنه دورك»، قالت أنثى الثعلب وهي تضحك.

حك القيّوط أذنيه في حيرة وقال: «ألا ترين أن ذلك مستحيل؟ المسافة بيني وبين الجبنة شاسعة جدا».

«حسن. لماذا لا تشرب قليلا من الماء لتقترب منك؟ سأساعدك».

وانكفأ القيّوط فوق البركة وشرع يغب الماء غبّا، بينما تظاهرت أنثى الثعلب أنها تجاريه، لكنها في الحقيقة كانت تراقب انتفاخ بطن القيّوط بكل ذلك الماء الذي كان يلعقه بنهم.

وأخيرا توقف عن الشرب وسقط أرضا. أخذ يتذمر ويشتكي، ليس من الألم كما قد يخيل لك، بل من الحسد، إذ ظن أنه آن الأوان لأن تحرمه أنثى الثعلب من غنيمته.

«آووو، القضمة الأولى لي، آووو، آووو» راح يصيح ويتأوه بلا انقطاع.

«أيها الأحمق الجشع الحاسد»، قالت أنثى الثعلب. «ألا ترى؟» ثم التقطت حجرا وألقته في الماء.

سقط الحجر في الماء وظهرت دوائر واسعة على السطح، وبدا كما لو أن الجبنة اختفت.

والآن تبين للقيّوط كيف خُدع، فلم تكن الجبنة جبنة بل مجرد صورة البدر التمام.

«لقد أعماك الجشع»، قالت أنثى الثعلب. «ولولا أنانيتك المفرطة، لما هان خداعك هكذا». وما إن أتمت أنثى الثعلب هذه الكلمات حتى توارت في الظلام.

انتحب القيّوط وتأوه من جراء بطنه الممتلئ ماءً، لكنه كان يعلم أنه لقي جزاءه العادل. وفي تلك الليلة تمنى لو أنه لم يخلق أبدا، ولا عجب، إذ كان ألمه شديدا، بحيث لم يستطع أن تغمض له عين.

الغراب والحوت

قد يتبادر إلى الذهن أن معظم المغامرات التي قامت بها الحيوانات في بلاد الهنود تتصل بالقيّوط الوغد أو الأرنب. لكن كان هناك مغامر آخر مشهور في الغرب، ألا وهو الغراب.

وهذه الحكاية تروى عن مغامرته مع الحوت.

طالما تمنى الغراب أن يتذوق طعم لحم الحوت، لكن كيف له أن يصطاد مثل هذا المخلوق الهائل؟

«سأقيده ثم أقتله»، قال متبجحا لنفسه، ثم طار نحو المروج واستعار حبلا طويلا متينا وانتظر لعل الحوت يقترب من الشاطئ.

لكن المخلوق الهائل لم يظهر إلا عند الظهيرة. كان طوله يفوق أطول الأشجار، وكان ينفث الماء بقوة تردد صداها صخور الشاطئ.

التقط الغراب الحبل وألقاه فإذا بالحوت يقع في الأنشوطة. إلا أن قوته لا تضاهي قوة الحوت، وقبل أن يتدارك الأمر، كان الحوت قد جره وقذفه داخل جوفه مع حبله.

«ما أشد الظلام هنا»، قال الغراب وهو يتلمس طريقه داخل جوف الحوت كأنه في متاهة «علي أن أشعل نارا وأستطلع المكان حولي». بدا كأنه داخل كهف لا تنفك جدرانه تتقلص وتسترخي باستمرار، وبدا كأن صخرة كبيرة في الوسط ترتفع ثم تهبط.

«ترى ماذا يمكن أن يكون هناك؟» تساءل الغراب، ثم قفز مقتربا من الصخرة التي نقرها بمنقاره الفضولي.

«آخ!» صاح الحوت بصوته الجبار. «اترك قلبي وشأنه!»

«إذن، هذا هو»، فكر الغراب وراح ينقر قلب الحوت بكل ما أوتي من قوة حتى توقف عن النبض.

أطلق الحوت زفرته الأخيرة وانقلب على ظهره. قال الغراب مبتجها بعد إن انطفأت ناره: «لقد انتصرت!»، لكن بهجته لم تَدُمْ. فكيف له أن يخرج؟ وعبثا راح ينقر جدران سجنه، دون أن يؤثر فيها شيئا.

«قا، قا!» صاح آملا في أن يسمعه أحدهم في الخارج.

كان بعض الأطفال يلعبون عند الشاطئ، فسمعوا صراخ الغراب. ولما رأوا الحوت الميت، ذهبوا يتراكضون إلى أهلهم ليخبروهم عن أمره. وسرعان ما أحضر الهنود سكاكينهم ورماحهم، فسمعهم الغراب يتحدثون بأصوات مشبوبة بالإثارة. وكانت هناك أصوات أخرى تصدر عندما يسلخ الرجال شرائح طويلة من دهن الحوت.

وفي الحال اخترقت الرماح جوف الحوت. انتظر الغراب حتى اتسعت الفتحة، ثم طار وحط على غصن شجرة صنوبر في غابة قريبة، تاركا الهنود في ذهول.

ما إن رتب ريشه المنفوش واستراح قليلا من مغامرته حتى راح يرمق الهنود بحسد.

قال بحسرة: «لقد حاربت ذلك الحوت حتى قتلته، وها هم يأتون الآن ليأكلوه. قا، قا! لابد أن أفعل شيئا!»

هبط من الغصن، وجمع بعض الأعشاب والطحالب، فصنع منها لحية طويلة وشعرا، وتنكر في زي ساحر عجوز. ولما تدبر لنفسه عصا يتوكأ عليها، توجه نحو القرية الهندية، وهو يعرج.

طرق باب أول مسكن، وخاطب ساكنه قائلا:

«إنني ساحر جبار، آتيكم من الهضاب. لقد أخبرتني الأرواح أنكم في خطر عظيم، لهذا جئت لأنذركم».

«أي خطر؟» سأله محارب شاب يجلس قرب المدخل.

«إن الحوت الميت رسول الموت»، قال الغراب-الساحر. «انفروا إلى قواربكم وانجوا بأرواحكم إلى البحر. لا مأمن لكم منه إلا هناك. لكن إن تخلف أحد منكم»، توقف عن الكلام، وأمال رأسه جانبا، متظاهرا بأنه يتلقى نصيحة من الأرواح.

«إن تخلف أحد، فالهلاك مصيره حتما! إني أشتم رائحة الموت في الهواء. لا تتوانوا، إن كنتم تحبون الحياة!»

لم يكن الهنود بحاجة إلى تكرار الإنذار؛ ففي طرفة عين، نشروا الأخبار المرعبة في القرية، وسرعان ما راحت قواربهم تبتعد عن الشاطئ. وقف الغراب بجانب جثة الحوت، ملوّحا بعصاه في الهواء كأنه يهش بها على الموت.

ما إن اختفت قوارب الهنود وراء الأفق، حتى تبدل سلوكه. إذ خلع ملابسه التنكرية، وراح يتلذذ بتلة اللحم أمامه، منتقيا منها ما لذ له وطاب، وهو يغني جَذِلا: كل هذا، لي أنا وحدي!

كيف صار ذيل الأوبوسَم(*) بلا شعر

يصعب علينا اليوم أن نتخيل أن حيوانا مثل الأوبوسم يمكن أن يكون له شعر على ذيله. لكن هذا ما كان بالضبط في سالف الأيام، حيث كان للأوبوسم ذيل جميل وكثيف كذيل السنجاب تماما.

كان الأوبوسم يعتز بذيله كثيرا، ويتطلع إليه على الدوام، ويحافظ عليه كأنه تميمة عزيزة جدا على قلبه.

كان يظن أن ذيله يكاد أن يكون أجمل ذيل في الدنيا. إلا أنه التقى الراكون ذات يوم. لم يكن ذيل هذا الحيوان أملس وحَسَن التهذيب فحسب، بل كانت تزينه دوائر سوداء متباعدة على مسافات منتظمة.

«ما أجمل ذيلك!» قال الأوبوسم من قبيل فتح باب الحوار.

«آهم»، أجاب الراكون بقليل من الامتعاض، لأنه كان يبحث عن شيء ليأكله، وها هو الأوبوسم يريد تزجية الوقت.

«ياله من ذيل جميل»، صاح الأوبوسم، وهو يقفز هنا وهناك من شدة دهشته.

«حسن. لكن ذيلك لا يقل جمالا»، قال الراكون في محاولة لوضع حد للحديث.

«أجل، إني أعلم ذلك، لكن تنقصه تلك الدوائر الرائعة». قال الأوبوسم. «ألا تتفضل علي بقليل منها؟»

(*) حيوان أمريكي يشبه الجرذ يتظاهر بالموت عندما يواجه الخطر(المراجع).

«طبعا لا!» صاح الراكون وهو يجتذب ذيله خوفا عليه من الضياع، حيث لا أمان من رفيق مخبول كهذا.

«حسنا، قل لي على الأقل كيف حصلت على هذه الدوائر الجميلة».

«لا بأس»، رد الراكون وعيناه تلمعان من المكر. «كل ما عليك أن تفعله هو أن تضع على ذيلك دوائر مصنوعة من لحاء الشجر ثم أقحمها في النار. وكلما طال إبقاؤك إياه في النار، كانت دوائره أجمل».

«أشكرك، يا أخي!» صاح الأوبوسم، وراح ينزع اللحاء عن أقرب شجرة.

كان الراكون مسرورا لأنه تخلص من ذلك المتطفل. «ستحصل على دوائرك بلا شك!» همهم بصوت خافت وهو يتباطئ في مشيته، قاصدا الجدول لعله يصطاد بعض السمك لعشائه.

في هذه الأثناء كان الأوبوسم يضع دوائر من لحاء الشجر على ذيله. كانت مهمة صعبة، لذلك راح يسب ويلعن وهو يكافح لإنجازها. ولو كان ذيله طويلا بطول ذيل التمساح، لانفجر من الغيظ قبل أن ينتهي؛ لكنه، لحسن حظه، كان أقصر، وهكذا وصل أخيرا إلى نهايته. عندئذٍ جمع على عجل بعض الأعشاب وأشعلها وانتظر قليلا حتى يزداد اللهب عُلُوّاً.

ثم صك على أسنانه بإحكام، ووضع ذيله ذا الدوائر في النار.

شعر بألم رهيب، لكنه لم يقل شيئا، ولم يتزحزح قيد أنملة. فلما تراءت له الدوائر السوداء أمام عينيه، قال لنفسه: «قريبا سيكون لذيلي مثل هذه الدوائر، التي هي الآن قيد الإنجاز». من أجل هذا تحمل ما كابده من ألم.

وأخيرا انطفأت النار. زحف الأوبوسم ليبرد ذيله بالعشب الندي، ثم استدار لينظر، وهو يئن من الألم. كان يتحرق شوقا لرؤية حلة ذيله الجديدة.

وبدلا من الدوائر وجد أن جميع شعر ذيله قد احترق بالطبع. كان بإمكانه، والحال كهذه، أن يعد نفسه محظوظا لأنه لم يفقد الذيل ذاته، لكنه فقد صوابه، ففي البداية راح ينتحب، ثم أتبع ذلك بسباب الراكون الذي خدعه، وأخيرا هرب ليتوارى عن الأنظار.

وبالرغم من أن الجميع علم بقصته وأشفق عليه، لم يتوقف الأوبوسم إلى يومنا هذا عن الإحساس بالخجل من ذيله العاري، ولهذا يفضل أن يلتصق بالأرض ولا يحب أن يراه أحد.

القُندُس والشيهم

هناك سبب وجيه للعداوة القائمة بين ساكنَيّ ضفاف الماء العظيم، أي بين القندس والشيهم. في الواقع كانت تربطهما في البداية صداقة قوية. كان الشيهم يعيش في كهف، وكلما سافر عرَّج على القندس ليحادثه. كانا يتحدثان عن كل شيء تحت الشمس، ويتباحثان في آخر الأخبار، ومن وقت لآخر كانا يقيمان مأدبة يتنعمان بها ثم يتبادلان الهدايا.

وفي أحد هذه اللقاءات عند سد القندس، أوحت روح شريرة للقندس بخطة ماكرة.

«ما رأيك لو ذهبنا لنلعب؟» قال للشيهم على نحو مفاجئ.

دُهِشَ الشيهم لفكرة اللعب بعد أن أكلا حتى التخمة، لكنه مع ذلك وافق:

«لا بأس، لكن أين نلعب؟ إن مكانك ضيق، كما تعلم».

«في الماء، طبعا»، رد القندس. «سنغوص تحت الماء».

ارتجف الشيهم وقال: «إن هذا ليس بالعمل الجيد. إنني خائف، وأنا لا أجيد السباحة».

«لا تقلق، سأحملك على ظهري»، اقترح القندس. وعلى مضض تسلق الشيهم، طائعا، ظهر مضيفه العريض كيلا يجرح مشاعره.

وحالما صعد الشيهم، قفز القندس في الماء، وراح يغوص حتى وصل القاع.

«انظر إلى هذه الشراك التي نصبتها هنا»، قال متبجحا.

لكن الشيهم لم يكن في وضع يسمح له بالنظر إلى أي شيء. فقد عب كميات هائلة من الماء، فراح يدعو جميع الأرواح الخيّرة أن تنجيه من هذه التهلكة المزرية. لقد امتلأت بطنه بالماء، فتكورت وصارت بحجم البطيخ.

قهقه القندس بخبث، وتباطأ كثيرا قبل أن يعوم على سطح الماء، ولما فعل، كان الشيهم شبه ميت، وعلى وشك أن يسلم الروح إلى بارئها. سجّاه القندس على العشب، وكان منهك القوى، تكاد روحه أن تزهق.

«لم يخطر ببالي أن الماء يمكن أن يؤذي مخلوقا جبارا مثلك»، قال باحتقار، لكنه سرعان ما قفز في البركة تحسبا من رشقة الشيهم له ببضع من أشواكه، إن هو استعاد عافيته فجأة.

ظل الشيهم مستلقيا هناك وهو يتأوه ويلفظ الماء من جوفه، ويفكر في الانتقام.

«انتظر أيها الوغد العجوز المترهل! سأمسح تلك الابتسامة الماكرة عن وجهك».

ذهب إلى بيته متثاقلا، ولم يصله إلا عند حلول الظلام، لكنه استعاد عافيته في صباح اليوم التالي، وعند الفجر كان يطوف بالبحيرة، فيدمر سدود القندس، الواحد تلو الآخر، وهو يقهقه بصوت عالٍ.

وسرعان ما برز من الماء رأس ذو شاربين.

«ماذا تفعل؟» صاح القندس، وارتعد صوته من الغضب لما رأى الدمار.

«لماذا كل هذا الانفعال؟» سخر منه الشيهم. «لا أعتقد أنك ستثور من أجل شيء تافه كهذا. انظر إلى منظرك السخيف!» ثم دحرج صخرة كبيرة من قمة المنحدر فأتت على سد آخر، مما دمره وجعل التيار يبتلعه.

واستشاط القندس غضبا. «ستدفع ثمن هذه!» قال مهددا، ثم اختفى تحت السطح.

لقد عرف الآن أنه لن يستطيع أبدا أن يهزم الشيهم لوحده، لهذا ذهب ليحضر إخوته وأخواته، وجداته وكبير أجداده. باختصار، شكى همه لكل أفراد عائلة القندس. وبما أن القنادس تربطها رابطة العصبية، فإنها لم تتردد، بل سارت على درب الحرب في الحال.

لقد شعر الشيهم أن مزحته التافهة لن تمر بسلام، لكنه كان واثقا أن إبره ستحميه. لهذا كان يجري من شجرة إلى شجرة لا يلوي على شيء، لكنه كان يخلف وراءه أثرا لا تخطئه حتى بومة في وضح النهار، واكتشفت القنادس الأثر في الحال، وطوقت الشيهم، في غفلة منه.

أطلقت القنادس صيحات الحرب حتى امتلأت الغابة بدويِّها. انتصبت أشواك الشيهم وصارت جاهزة للإطلاق، لكن أعداءه تحسبوا لهذا الأمر، لذلك ألقوا عليه أغطية لمنعه من وخزهم، ثم ربطوا نهايات الأغطية بعقد هندية لكيلا يهرب، وساروا به إلى الماء العظيم، منتشين بالنصر.

«ماذا سنفعل به؟» سأل المحاربون زعيمهم.

«سنأخذه إلى جزيرة قاحلة، حيث سيبقى فيها بقية حياته لكيلا يسيء إلينا ثانية. والسلام».

وهكذا كان. وعلى الرغم من كفاحه العنيد، حُمِل الشيهم إلى جزيرة صغيرة بعيدة عن شواطئ بلاد الهنود.

لم يكن في الجزيرة كائن حي آخر سواه، لكن الشيهم لم يفقد الأمل. فبعد أن استراح قليلا من رحلته المتعبة، راح يتفقد موطنه الجديد، وهو يتذمر ويشكو.

اكتشف أنه لا توجد حتى شجرة واحدة في طول الجزيرة وعرضها، فالجزيرة جرداء تماما. «علي أن أخرج من هنا بطريقة أو بأخرى، وإلا فالهلاك مصيري لا محالة»، قال في سره.

ظل يتأمل فيما يجب فعله طوال تلك الليلة واليوم التالي، وأخيرا توصل إلى حل ربما لا يخطر لأحد سواه: قرر أن يستدعي ريح الشمال لمساعدته. فلا أحد غيرها يستطيع أن يروض أمواج المحيط كيلا تؤذي الشيهم. وعلى الرغم من دراية الشيهم بأن ريح الشمال معروفة بشرها أكثر من خيرها، إلا أنه توجه نحو الشمال وبصوت مُتَهَدِّج نطق العبارة السحرية:

زون، كازا، زون

هون، هون، هون!

وفي الحال جاءت ريح الشمال وهي تزأر وتصفر، فهدأت الأمواج، وفجأة التف العالم بضباب صقيعي أبيض. طقطقت أسنان الشيهم، فهو لم يعرف مثل هذا البرد القارس من قبل. وأخذ الضباب بالارتفاع تدريجيا، ورأى المنبوذُ خلاصه يلوح أمام ناظريه. لقد تجمد سطح الماء العظيم كلية!

وعلى عجل فحص متانة الجليد، ثم انطلق مسرعا في طريق العودة إلى بلاد الهنود. كان الجليد قد غطى أكوام الثلج، وكان

الشيهم يقع فيها كلما تقدم بضع خطوات، وبلغ الشط في الوقت المناسب، لأن الجليد قد بدأ في الذوبان.

كان قد نسي تماما خصومته مع القنادس، لكنه عندما تسلق إلى كهفه وجد أنها دمرت مسكنه وجحره الوثير الذي كان يُمَنّي النفس بقضاء الراحة فيه، فصاح:

«إن هذا أمر لا يطاق أبدا!»

وفي تلك الليلة بالذات جمع جيشا هائلا من الشياهم وقليلا من القنافذ التي تطوعت للمساعدة.

من جهتها لم تكن القنادس أقل احتراسا. إذ علم زعيمهم من جواسيسه بعودة الشيهم. وبحلول الفجر تقابل الجيشان العظيمان، وهما يعدان العدة لخوض المعركة، ولا فاصل بينهما إلا الجدول. أطلقت القنادس صيحة الحرب، ثم قذفت أنفسها في الماء وشنت الهجوم. وعلى الرغم من قلة عددهم، استطاعت الشياهم أن تصد المهاجمين برشقة من الأشواك وشنت القنادس هجوما آخر، ومرة أخرى هُزِموا، وأسرت الشياهم زعيم القنادس ذاته.

فقدت القنادس شهيتها للقتال بعد أسر زعيمها، فتفرقت إلى بيوتها وانتهت المعركة. والآن إليكم قصة ما حدث للأسير.

تشاورت الشياهم فيما بينها لتقرر مصير الأسير.

«يجب ألا نقتله مهما كان الأمر»، قال زعيم الشياهم. «لأن هذا سيغضب مانيتو».

اقترح أحد شيوخ الشياهم: «لنصعد به إلى إحدى الأشجار!»

«فكرة رائعة!» صاحوا جميعا، وهم يتضاحكون. وفي الحال راحوا يجرون القندس المقيد إلى شجرة صنوبر طويلة. وعندما صعدوا به إلى قمة الشجرة، فكوا قيوده، ثم نزلوا ضاحكين.

انتاب القندس رعب شديد، وهو على هذا العلو الشاهق. كان رأسه يدور، وكلما هبت الريح على الشجرة، تيقن أنه هالك لا محالة.

لم تجد الشياهم في حياتها متعة أكبر من متعة مراقبته؛ فظلت ترقص وتمرح تحت الشجرة حتى حلول الظلام.

وعندما ذهبت الشياهم إلى بيوتها، هدأت الريح وتوقفت الشجرة عن التمايل. ولما رأى القندس ذلك، راح يفكر بوسيلة تخلصه من ورطته.

«لا يمكنني أبدا أن أنزل، فمصيري التحطم والموت. لكن لدي أسنان حادة، فلماذا لا أستخدمها؟» ثم راح ينخر قمة شجرة الصنوبر بهدوء.

ظل ينخر الجذع طوال الليل، قليلا قليلا. وبحلول الفجر لم يبق من الجذع سوى جِذل قصير، وصار بإمكان القندس أن يقفز بسهولة قبل أن يلقي نظرة أخيرة على إنجازه. عندئذ اختفى، بحثا عن أقرب ماء كيلا يقع في الأسر ثانية وليروي غليله لأنه كان عَطِشا جدا جراء عمله في الليل.

هذا هو سبب العداوة بين القندس والشيهم؛ فإن مررت يوما بجذل شجرة منخور، فمن الأرجح أن الشياهم نجحت مرة ثانية في أسر قندس، وكان على هذا القندس أن ينخر الشجرة لكي يهرب.

صديق الإنسان الوفي

كم من الرقاد مضى على وادي الضَّياع، وكم مرة شهد «واهو» أسراب الإوز وهي تهاجر، أو سمع وقع حوافر قطعان البيسون التي تصم الآذان.

وحمل الزمن الذي لا يرحم كل شيء على جناحيه وولى. ولم يبقِ سوى الظِلال الطويلة التي خيمت رويدا رويدا على الريف الواجم. ولا أحد سواها كان يفهم ما يقوله ذلك الهندي العجوز، الذي كان يحادثها كل مساء قبل ظهور النجوم فوق المخيم.

وذات مساء، عندما بلغت الظلال أقصى طولها، جلبت إليه رسالة من مانيتو العظيم نفسه، وهمستها له همسا:

«إن كبير الأرواح بانتظارك: حضِّر لرحلتك، حَضِّر لرحلتك. وَدِّع الصِّحاب، يا واهو، وَدِّع الصِّحاب!»

«وأي صحبٍ أودِّع؟» قال واهو وهو يبتسم ابتسامة حزينة.

«لقد تفرق أبنائي وبناتي في أصقاع الأرض، أما الناس هنا فسيسعدون لرحيلي».

ونهض الرجل العجوز على قدميه. التقط مجدافه المُهَشَّم، وسار ببطء نحو النهر.

كان الضباب الفضي يرتفع من الماء عندما انطلق واهو في قاربه لآخر مرة. لم يعد هناك شيء الآن يمنع القارب من الإبحار في النهر المتهادي إلى مرابع الصيد الأبدية.

ولو التفت العجوز الهندي إلى الوراء لرأى أحدهم يجري بمحاذاة الضفة، تفيض عيناه من الأسى.

لكن واهو لم يرَ أحدا. فبكل تواضع أسلم قيادة قاربه إلى التيار الذي حمله بسرعة تزداد باستمرار. وبينما كان القارب يقل واهو بسرعة إلى شلالات الرعد، أخذت أغنية الموت التي ينشدها بلحن شجي خافت تعلو فوق هدير المياه الصاخب.

في هذه الأثناء قذف شخص آخر نفسه في النهر، وأسلم نفسه لدّوامة الأمواج الهادرة.

ووسط دوي يصم الآذان ويطغى على كل الأصوات الأخرى، ظل واهو يغوص أعمق فأعمق حتى استقر أخيرا على سطح أبيض كالحليب.

قال في نفسه: «هذا هو النهر الأبيض، قريبا سأكون هناك».

عندئذٍ رأى أمامه صخرتين مثل بوابة هائلة، وخليجا تتلاطم عنده الأمواج برفق واستمرار لا ينتهي.

ترك العجوز قاربه ينساب باتجاه الضفة البيضاء حيث تَرَجَّل.

لكنه لم ينتبه حتى إلى ما حوله عندما تباعدت الصخرتان فطالعه محاربان وسيمان يشع من عمامتيهما بريق فضي.

«نحن حمُاة مرابع الصيد الأبدية»، قال المحارب الأول. «كنا بانتظارك».

«ولكن لماذا تأتي وحيدا؟»

«لم يبقَ لدي من يعتني بي، ناهيك عمن يرافقني في هذه الرحلة»، رد واهو.

«إذن، فمن هذا الذي يرمقك من الماء بعينين تفيضان حزنا؟»

التفت واهو وراءه فجأة ليجد أشد العيون وفاء عرفها في حياته تتطلع إليه.

«أجل، إنه كلبي، كلبي أنا!» همس قائلا، وهو في منتهى التأثر. ثم نزل إلى النهر الأبيض، وهو يحتضن صديقه الوفي ذا القوائم الأربعة.

«ما كان يخطر لي هذا على بال»، قال بصوت عالٍ.

«مع ذلك، كان خير من أحبك»، سمع واهو صوت كبير الأرواح يأتيه من البعد.

وهكذا دخل الهندي العجوز وصديقه الوحيد مرابع الصيد الأبدية، يسيران على الدرب الذي لا عودة لأحد منه أبدا.

الحرب الأولى

عندما أتم القلموت قصة الكلب الوفي، لم يعد يخرج من جوفه سوى خيط رفيع من الدخان، لذلك سأله الصبي بسرعة:

«هل كان البشر على وئام دائم مع الحيوانات في بلاد الهنود؟»

«لا، لم يكونوا»، أجاب القلموت. «عندما أعطى مانيتو الهنود القوس والنشاب، وتعلم هؤلاء كيف يوقدون النار، بدأت الحيوانات تكرههم، لأن الصيادين أبعدوها عن مرابع صيدها القديمة، وطاردوها أنى وجدوها، يحملون لها الموت في رؤوس نشاشيبهم. وكما قلت لك، حل المرض ضيفا على الهنود، لكن الأعشاب ساعدت على شفائهم.

«ساد السلام بين المعسكرين لعدد من السنين، لكن الخلاف القديم نشب ثانية. فإلى من تعود ملكية مرابع الصيد في بلاد الهنود، للحيوانات أم للهنود؟ كان هذا هو السؤال الذي أثارته الدببة والظباء والغربان والأوبوسم والقيّوط.

«وفي النهاية خاف الناس وانسحبوا إلى الصخرة المقدسة ليتحصنوا بها.

«جاء هذا في الوقت المناسب، إذ كانت الحيوانات أكثر عددا، وباستطاعة قطيع واحد من البيسون أن يدمر معسكرا هنديا عن بكرة أبيه.

«وأخذ الجميع يعد العدة للحرب، فالطيور اتخذت من الأشجار طبولا للحرب، وأنشأت القنادس السدود لحرمان الهنود من الماء، ونادت الذئاب على جحافل الحيوانات بعواء تقشعر له الأبدان.

«ولم يكن الهنود أقل استعدادا، إذ جددوا أوتار أقواسهم وسنّوا رؤوس سهامهم، عندئذٍ نشبت الحرب الفعلية.

«حمي الوطيس، فارتفعت سحابة سوداء هائلة حجبت السماء. لكنها لم تكن سحابة، بل سرب هائل من الطيور تتجه نحو الصخرة المقدسة. ونشبت معركة لا يُسمَع فيها إلا رنين قوس مشدود، أو أزيز نشاب يشق السماء، أو صراخ يملأ الأجواء، وريش يتناثر هنا وهناك.

«وأُجْبِرَت الطيور على التراجع من حيث أتت، بعد أن حاولت عبثا أن تطوِّف بالجو قليلا.

«والآن أتى أعداء آخرون. فاض المرج بالدببة وقطعان البيسون، بالظباء والذئاب، بالأرانب والثعالب، تجر خلفها التماسيح والأفاعي السامة والسحالي.

«نفدت ذخيرة الهنود من النشاشيب، وعلى عجل أشعلوا نارا أطلقت دخانا كثيفا ذا رائحة لاذعة. وهبت الريح لمؤازرتهم، فلفحت الدخان في وجه الحيوانات المقاتلة التي لم تعد تطلق صيحاتها الحربية. وألقم الهنود حطبا رطبا في النار، فسكن كل شيء في المرج. راحت الحيوانات تسعل وتعطس، وانهمرت الدموع من عيونها، مما أجبرها على الانسحاب من أرض المعركة، وانتصر البشر.

«هكذا انتهت الحرب الأولى، لكن النصر لم يَرُقْ للهنود. فبينما وعدت الحيوانات أن تعطيهم لحمها وفراءها، أقسم الهنود بدورهم ألا يقتلوا مخلوقا إلا لحاجة أو مبرر».

وتوقف القلموت عن الكلام. ونظر إليه الصبي وهو يتحسَّر، إذ كان باستطاعته أن يواصل الاستماع طوال الليل، لكن البوق السحري همد ساكنا.

فقال الصبي في نفسه: «سأرفعه، إذن، فقد تأخر الوقت على أي حال، وغدا سنتابع».

نهض الصبي من كرسيه وألقم النار عشاءها، بعد أن وضع القلموت في علبة يحفظ فيها أنفَس كنوزه.

ضربت الريح بقبضتها على النوافذ، لكنها عجزت عن إخماد أنشودة النار التي راحت تحكي عن دروب اندثرت منذ زمن، وعن أسراب من الإوز الجيداء تسافر جنوبا، وعن قوارب تشق طريقها في خضم الشلالات الهائجة، وعن مجد بلاد الهنود الذي كان.

الليلة الثالثة

كان الجزع يأكل قلب الصبي، إذ ظل سحابة يومه يُنَقِّب في رأسه متسائلا عما سيخبره القلموت من قصص تلك الليلة وعندما أطبقت الأزهار كؤوسها احتماء من ظلال المساء، وضع الصبي البوق على المائدة بعناية.

لكن البوق ظل ساكنا، كأنه ينتظر حتى تأج النار وتطرد الظلام بوهجها وفعلا لم يتحرك حتى كان له هذا، وكانت حركته بصعوبة مرئية وخرجت طلائع الكلمات مهموسة، يرافقها عبير خفيف يفوح من جوفه:

«كان الهنود في غابات الثلج الأبدية وفي الجنوب والمروج يروون أساطيرهم القديمة على وهج مواقدهم، وقد قمت بتدوين هذه الأساطير في ذاكرتي كي أتمكن الآن من روايتها لك، على وهج نار الموقد أيضا».

«وعلام ستتحدث الليلة؟» عندما عجز عن لجم فضوله طرح الصبي هذا السؤال الذي ظل يراوده سحابة يومه.

«كنت أعرف أنك ستسألني هذا السؤال»، قال البوق بمودة زائدة». «وأعلم ما يدور في ذهنك؛ تريد قصصا عن محاربين مشهورين لا تخطئ سهامهم هدفها أبدا، وتنشر رماحهم الرعب في صفوف أعدائهم لكن الهنود، كما تعلم، لم يكثروا الحديث قط عن مثل هذه الأمور التي يتحدث عنها شاحبو الوجوه في كتبهم»

«إذن، فماذا فعل الأبطال الحقيقيون فعلا؟».

«أولا، ساعدوا غيرهم على تحسين نمط معيشتهم ولا تظن أن هذه كانت مهمة سهلة، إذ غالبا ما خاضوا غمارا لا يحلم بها حتى

أكثر المحاربين شهرة بل كان عليهم أن يلجأوا أحيانا إلى الحيلة أو الفكاهة لإنجاز بغيتهم».

«كالثعلب الذي أوقع بذلك القيّوط؟» .

«تماما، والآن تخيل جيشا كاملا من الأرواح والقوى الشريرة...».

«كالتنين والساحرات والشياطين؟».

«أجل، كل هذه كانت موجودة بلا شك، بالإضافة إلى الأرواح الشريرة التي استوطنت قلوب الهنود أنفسهم، وكانت هذه ألد الأعداء على الإطلاق، لكن دعني أروي قصصي، ولنكتفِ بما قدمته من شروح».

«شنجبيس» وريح الشمال

عندما كان العالم في أوج شبابه، لم يكن يعيش فيه إلا صيادو الأسماك في الصيف كان الصيادون يبحرون بقواربهم بعيدا نحو الشمال حيث تغص البحيرات والأنهار بالأسماك إلا أنهم يعودون دوما إلى ديارهم قبل حلول الشتاء كيلا يواجهوا «كابيبونوكا»، ريح الشمال.

كان «كابيبونوكا» يحكم بلاد الجليد، حيث لا عشب ولا أزهار تضفي بهجة على السهول البيضاء، لكن الصيادين الهنود لم يأبهوا «بكابيبونوكا» كثيرا، لأنه لم يكن سيدا مطلقا على العالم كله كان «شاوانداسي»، ريح الجنوب، أقوى منه، وكانت مملكته صيفا دائما

كان «شاوانداسي» يسافر في الربيع إلى الشمال لكي يساعد الهنود، حيث كان يذيب لهم جليد البحيرات والأنهار بأنفاسه، ويعيد فتح المعابر لقواربهم كان دوما منهمكا في عمله: كان أول ما يقوم به هو نثر أزهار ناصعة الألوان فوق المروج، وفي الصيف كان يمنُّ على الهنود بموسم سخي من الذرة، وفي الخريف بموسم الفاكهة.

وعندما يتعب «شاوانداسي»، كان ينزوي في كهف هائل في الجبال، وهناك يُعَمِّر غليونه ويدخن ويظل الدخان يتصاعد من غليونه ساعة بعد ساعة، ويسود الريفَ الصمت والسكون، لا شيء سوى الدخان يخيم على المكان عندئذ يقترب حلول فصل الصيف الهندي، وهو أجمل فصول السنة أما بالنسبة إلى صيادي الأسماك في الشمال البعيد، فلم تكن بلاد الدخان، كما كانوا

يسمونها، إلا إيذانا ببدء رحلة العودة إذ يوشك «شاوانداسي» أن يذهب إلى النوم، وعليهم أن يرجعوا إلى ديارهم قبل وصول كابيبونوكا الشرير.

وجاءت ريح الشمال تذرع الأرض ذرعا يُدَوّي صداها في المدى.

«كابيبونوكا قادم!» صاح الصيادون «لقد حان وقت رحيلنا». واستعدوا جميعا لرحلتهم الطويلة عبر الأنهار والبحيرات.

وحده «شنجبيس» ظل ساكنا، يستغرب عجلة الآخرين كان شخصا مرحا لا يعرف الخوف، ولا يمكن تعكير مزاجه أبدا، يفرح بلا حدود عندما يحظى بصيد عظيم، ولا يحزن إذا أخفق، وكان صاحب نكتة مهما كانت الظروف، وفوق كل هذا كان يعرف ما هب ودبّ من الخدع السحرية، يفاجئ بها أصدقاءه ويحيرهم، لكنهم يضحكون في النهاية حتى عندما لا يبدو الأمر مضحكا في البداية. فعلى سبيل المثال، حَوّل مرة جذر شجرة إلى حَيّة وانفجر ضاحكا عندما هربوا من الهلع ومرة أخرى، سحر صنانير صيدهم وتظاهر بأنه يستغرب حظهم العاثر.

لكنهم لم يفهموا عندما قال لهم إنه لا يخاف «كابيبونوكا» العجوز، وإنه ينوي البقاء في الشمال ومتابعة الصيد بعد رحيلهم إلى ديارهم وبالرغم من معرفتهم أنه قادر على تحويل نفسه إلى بطة وأن كل أنواع السحر في متناول يده، إلا أنهم ظنوا أن هذه لن تجدي في مبارزته مع ريح الشمال، فقالوا له محذرين:

«إن ريح الشمال أقوى منك بمئة مرة وما لم تتحول إلى دب أو سمكة فإنها ستقتلك»

ابتسم «شنجبيس» ابتسامة هادئة وقال:

«لا عليكم بهذا، ستقيني ملابسي الجلدية شر البرد نهارا، وفي الليل سأوقد نارا في خيمتي وليجرؤ «كابيبونوكا» على الدخول، إن شاء!».

وبينما كان الآخرون يُحَمّلون قواربهم بما اصطادوا، راح «شنجبيس» يواصل صيده بسرور حزنوا جميعا عندما ودّعوه، لأنهم ظنوا جميعا أنهم لن يجدوه هناك لدى عودتهم في الصيف القادم لكنه لم ينصت إلى أي من مناشداتهم أو توسلاتهم، فما كان عليهم إلا أن يركبوا قواربهم ويتجهوا بها جنوبا ظل «شنجبيس» يراقبهم حتى اختفت مراكبهم وراء الأفق.

ثم راح يعمل بهمة، يكدس الحطب في خيمته، يجفف اللحاء والأغصان وكل مساء كان يجلس بجانب النار المتأججة، الراقصة ظلالها على جدران خيمته، يفكر في أهله ويغني كان يذهب كل صباح إلى البحيرة ليصطاد السمك من خلال خرق جعله في الجليد، وكان يعود دائما في نهاية يومه إلى خيمته وقد غنم صيدا وفيرا.

كان «كابيبونوكا» قد وصل في هذه الأثناء، فساق جميع الحيوانات إلى مخابئها، ونثر إبر الثلج المدببة هنا وهناك، وراقص الصقيع حتى طقطقت الأشجار وأنّت ولما وصل البحيرة أخيرا وجد هناك «شنجبيس» عائدا إلى بيته يحمل صيد يومه.

صاحت ريح الشمال «أي إنسان هذا الذي يجرؤ على البقاء هنا بعد هجرة البط والإوز البري؟ سأزور خيمته الليلة وسأطفئ ناره!».

أقبل الليل، وكان «شنجبيس» يجلس بجانب النار، متصالب الساقين، يغذي النار بِقُرَم الحطب، ويراقب ببال هانئ عشاءه من السمك وهو يطبخ في وعاء فخاري.

«لقد حذرني أصدقائي من «كابيبونوكا»، وزعموا أنه روح شريرة»، قال في نفسه «وزعموا أنه أقوى من أي هندي حسن، قد لا أكون قادرا مثله على تحمل البرد، لكني، من جهتي، لا أعتقد أنه يحب الدفء أيضا».

تناول «شنجبيس» عشاءه، غير دارٍ أبدا بالجلبة التي عمّت الغابة كان «كابيبونوكا» يتجه هادرا نحو خيمته تساقطت من السماء آلاف من نُدف الثلج لكنها لم تبلغ الأرض، لأن الريح أمسكت بها وألقتها على مسكن «شنجبيس» وفي الحال التحفت خيمته بغطاء أبيض من الثلج صد عنها الريح والبرد كما يفعل فرو الدب القطبي.

أدرك «كابيبونوكا» أنه ارتكب خطأ، فغضب غضبا شديدا: وقف عند مدخل الخيمة ثم راح يصرخ بقوة، لكن «شنجبيس» لم يكن جبانا، بل كان يضحك فقط.

«ماذا تفعل «ياكابيبونوكا»؟ حذارِ، وإلا فستنفجر وجنتاك من الإجهاد!».

اهتزت الخيمة تحت وطأة الريح التي تقاذفت الستارة الجلدية المسدلة على الباب، محدثة جلبة هائلة.

وأخيرا شهق «كابيبونوكا» ملء رئتيه ثم زفر زفرة أزاحت الستارة واقتحم الخيمة كان زفيره لاذع البرودة وبلمح البصر غطى الصقيع جدران الخيمة.

تظاهر «شنجبيس» كأن شيئا لم يكن: راح يغني بصمت، ومن حين لآخر كان ينهض ليلقم النار مزيدا من الحطب كان الحطب من خشب الصنوبر لذلك تعين على شنجبيس أن يبتعد عن وهجها لئلا يحترق.

حدق في «كابيبونوكا» ووجد نفسه مرغما على الضحك ثانية، إذ رأى كيف تحولت ندف الثلج وقطع الجليد في شعره إلى حبيبات من العرق ثم بدأ «كابيبونوكا» يتلاشى رويدا رويدا من أمام ناظري «شنجبيس».

«علام ترتجف؟» قال «شنجبيس» «تعال واجلس بجانب النار وتدفأ بها».

لكن كابيبونوكا كان يخشى النار، لذلك قفز منطلقا خارج الخيمة بأسرع مما دخل

استطاع أن يستجمع قواه في الهواء الصقيعي في الخارج، ثم تملّكه الغضب ثانية ولأنه فشل في هزيمة «شنجبيس»، راح الآن يصب جام غضبه على كل شيء يصادفه في طريقه، كان يلوي الأشجار أو يحاول تدمير مخابئ الحيوانات الضارية عندئذٍ عاد إلى «شنجبيس» وصاح بأعلى صوته:

«تعال إلى النزال! لماذا لا تخرج إن كنت شجاعا؟ تعال نتقاتل هنا في الثلج لكي أبين لك في الحال من هو سيد بلاد الجليد!».

تأمل «شنجبيس» الأمر مليا وقال: «لا بد أن «كابيبونوكا» قد أوهنته النار، وبما أن جسمي دافئ، فبإمكاني أن أتعارك معه وعندما يرى أنني الأقوى، سيتركني وشأني؛ عندئذٍ يمكنني أن أبقى هنا ما طاب لي البقاء».

وخرج يعدو من الخيمة عدوا، وتعارك مع «كابيبونوكا»، **وبدأ** نزال عنيف كانا يتدحرجان في الثلج المتجمد، ثم ينهضان، **ليعاودا** السقوط ثانية.

تقاتلا طوال الليل، لكن شنجبيس لم يشعر بالبرد أو التعب، إذ إن الإجهاد منحه الدفء وتسارع جريان الدم في عروقه كما أنه شعر بأن خصمه أخذ يضعف أكثر فأكثر، فهدأت أنفاسه الصقيعية وسكنت الريح حتى ساد العالم سكون تام.

وبحلول الفجر رأى «كابيبونوكا» أنه هُزِمَ شر هزيمة، فأطلق صيحة غاضبة وهرب لا يلوي على شيء هرب بعيدا، بعيدا إلى الشمال، بل إلى أقصى الشمال في العالم وقف «شنجبيس» أمام خيمته، ينشد نشيدا مرحا، لأنه فرح لما رأى أن شجاعته ومرحه تغلبا حتى على ريح الشمال، «كابيبونوكا» المرعب.

هِيَواثا الحكيم

لا يذكر أحد اليوم العهد الذي كان فيه هِيَواثا سيدا حكيما على قبيلة «الإيروكوا» العظمى لكن أسطورته لا تزال تتداولها الألسن حول مواقد النار على الشكل التالي:

تقع بحيرة «تِيوتو» وسط غابات لا حدود لها وكأن ما أراه يحدث أمامي للتو، إذ لا أزال أرى مراكب الهنود المحملة باللحوم والجلود تنساب على سطحها الذي تداعبه الرياح.

كانت هذه البحيرة بمنزلة السوق في تلك الأيام، حيث كان الهنود يتبادلون الصيد والأعشاب والفواكه والأسلحة والأغطية وأشياء أخرى وكعادة الأسواق، لم يَخْلُ الأمر من الضوضاء والجدال والمساومة.

وذات يوم، وبينما القوم يساومون ويجادلون كعادتهم، هبط من السماء الزرقاء بين مراكبهم مركب أبيض كبياض الثلج البكر فتوقف الصراخ والمشاحنات في الحال ونهض وسط القارب الأبيض هندي مجهول، ثم تفحص وجوههم الغاضبة، وسألهم:

«علامَ تتشاحنون؟».

وتعالت الأصوات الشاكية ثانية، كأن الريح عادت تنوح في قمم الأشجار:

«لا أريد أن أبدل ملحي بجلود القنادس!».

«هذا أغطيته مهترئة!».

«لا أستطيع أن أتخلى عن سهامي الجيدة، ليس لدي ما يكفيني!».

رفع الرجل المجهول يده ليسكت الحشود.

«كُفّوا عن حديث العجائز هذا، وانصتوا إلي لقد جئت لأساعدكم».
أنصت الجميع، واستقرت عيونهم على الغريب الذي تابع قائلا:
«عودوا إلى الشاطئ وأخرجوا مراكبكم من الماء».
ولبى الهنود أمره، فأخرجوا مراكبهم وصَفّوها على الضفة الرملية وكان مركب الغريب بينها عندئذٍ رفع الرجل المجهول يديه إلى السماء.
فجأة ادلَهَمَّت السماء وحجبت الشمسَ آلافٌ من طيور البط التي حطت على البحيرة وراحت تشرب وبعد أن روت غليلها، حلَّقت ثانية لتحل محلها أسراب أخرى، وهكذا دواليك حتى لم يبق في البحيرة قطرة ماء واحدة عندئذ حلقت الطيور واختفت.
«أنا «هيواثا»»، قالٍ الغريب للهنود «لقد جلبت لكم نقودا تستعملونها لشراء الفراء، واللحوم، والأسلحة انظروا» ثم أشار إلى البحيرة التي جف ماؤها، فإذا بآلاف وآلاف من القواقع اللاصفة ترقد في قاعها.
«بهذه يمكنكم أن تشتروا ما تشاؤون من حاجاتكم لكن عليكم أولا أن تحولوها إلى رقاقات مستديرة، ثم تنظموها كما تنظمون الخرز، وسمّوها «وامّبَمْ»».
كان هذا أول ما فعله «هيواثا» بعد وصوله إلى بلاد الهنود من بلاد ما وراء السحاب ولما راق له العيش بين الهنود كثيرا، أقام بينهم إلى الأبد وبينما كانت الجداول الرافدة والأمطار تملأ بحيرة «تيوتو ما»ء عذبا، كان «هيواثا» يبني لنفسه كوخا على تلة مجاورة.
مرت الأيام والشهور والسنون وصار الدرب الضيق الذي يسلكه «هيواثا» مطروقا وقاسيا كأرض بيدر لكثرة ما وطأته الأقدام

ومـردٌّ هذا أن حكمـة هيـواثا طبـقت شـهـرتهـا الآفـاق، وجـاء إلى خيمتـه بجانب الـبحيـرة كل من احـتاج إلى مشورة في أي مـوضوع تحت الشمس.

ثم أتى زمن لعبت فيـه حكمـة الغـريب دورا حـاسـمـا في حـيـاة مـجـاوريه إذ انقـضَّت عليـهم من الشـمـال قـبـائل من الغـزاة العـتـاة، فأحـرقت خيامهم في مـحيط البحيرة، يقتلون الناس العُزَّل، وينشرون الرعب بين قبائل بأكملها ويطاردونها.

وجاءت إلى خيمـة هيـواثا حـشـود من الهنود اليـائسين، إمـا راجلين وإمــا راكــبين، وجلســوا على العــشب تحت الأشــجــار أو تحت ظل الصخور. وخرج إليهم «هيواثا» يرتدي ثوبا طويلا أبيض.

«لقـد هـزمكم أعداؤكم لأنكم متـفـرقون، لن يمكنكم مقـاومتـهم إلا إذا رصصـتم الصـفـوف وتماسكتم، ولن يسـود الســلام في بلاد الهنود إلا آنئذٍ انظروا!» ورسم بيـده قـوسـا عـريضـا في الهـواء «إنكم كثـرة، وتتحدثون اللغة ذاتها، لكنكم لا تثقون ببعضكم بعضـا أبدا ولم تلتقوا سوية خـارج خيمتي إلا الآن، خـارج خيمتي، عندما داهمكم الموت لم يفت الأوان بعد، وإن أطعتم مـشـورتي، ستـصـبحـون أقـوياء، بل أقـوى مما كنتم فيما مضى».

«بل سنطيـعك بكل ســرور»، قــال أكـبـرهـم سنا، وهو زعـيـم أبيض الشعر، وهو ينهض «حَدِّثنا، أيها الحكيم «هيواثا»!».

«حسنٌ والآن استمعوا إلى ما أقول أنتم يا معـشر «الموهوك»، يا من تجلسـون في ظل الشـجـرة الهـائلة الـراسـخـة جـذورهـا في الأرض، المتدلية أغـصـانها لتظلكم، ستكونون علـى رأس الأمم، لأنكم محـاربون بواسل».

توقف «هيواثا»، ثم نظر نحو حشد آخر يجلس تحت شجرة ضخمة، فقال:

«أما أنتم، يا معشر «أونايدا»، فأنتم الأمة الثانية لأنكم حكماء».

«أما أنتم، معشر «أونونداغا» القادمين من سفوح الجبال الشامخة، فلا تخفى عليَّ بلاغتكم؛ لهذا ستكونون الأمة الثالثة».

ثم نظر «هيواثا» إلى الهنود الذين تدل ملابسهم وأسلحتهم على أنهم صيادون

«يسرني أنكم جئتموني زرافات ووحدانا، على ما في ذلك من مشقة لكم نظرا لتفرق منازلكم في عمق الغابات فيا معشر «سنكا»، أنتم من خيرة الصيادين ويجب ألا تتخلفوا عنا، بل تنضموا إلينا أمة رابعة».

وأخيرا التفت «هيواثا» إلى آخر مجموعة، فخاطبهم قائلا:

«إننا نعرفكم باسم قوم «كايوجا» وبما أن الطبيعة وهبتكم وحدكم سر المواسم الغنية، فإن كبير الأرواح، «أوايانو» بالذات، لمقتنع أن يجعلكم الأمة الخامسة».

وأنهى «هيواثا» حديثه ثم ابتسم لجموع الهنود، ودعا إليه مركبه الأبيض الذي أبحر به بعيدا نحو الأفق، من تلقاء ذاته ودون تجديفة واحدة منه وهناك صعد فجأة في الجو، يحمل «هيواثا»، ويتسلق المرتفعات المقدسة رويدا رويدا حتى توارى عن أنظار البشر إلى الأبد.

هذه هي أسطورة «هيواثا» التي تحكي لنا أيضا أنه منذ ذلك اليوم استطاع «الإيروكوا»، أو الأمم الخمس، أن يدفعوا عن أنفسهم كيد كل المعتدين.

مغامرات «منابوش»

لم يستطع الهنود قط أن يجزموا إن كان «منابوش» روحا طيبة أم مجرد مخلوق عادي فانٍ كغيره من المخلوقات لكنهم كانوا يعلمون شيئا واحدا علم اليقين، ألا وهو أن «منابوش» كان يساعدهم كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ولهذا تكثر حوله أساطير الهنود .

يقولون إنه ولد منذ سنين طويلة خلت لا يذكرها حتى أكبر الهنود الحمر سنا كانت أمه التي ماتت، وهو بعد صبي، أجمل النساء، وكانت جدته «نوكومس» عالمة بأقوى أنواع السحر ولهذا السبب كان باستطاعتها أن تعيش على الأرض كما في السماء وهي التي أعطت «منابوش» قواه السحرية .

وفي ذلك اليوم البعيد عندما أبصرت عينا «منابوش» النور في بلاد الهنود وُلِدَ أيضا إخوته «شِبْيابوس»، و«وَباسو»، و«شوكانيبوك».

تقول الأساطير إن «وَباسو» لم يعجبه ضوء النهار، لهذا ما إن فرك عينيه بيديه الهزيلتين حتى هجر موطنه إلى الشمال البعيد، إلى بلاد الثلج حيث أصبح سيد الظلام هناك، ولا يزال إلى يومنا هذا.

أحب منابوش من بين إخوته الثلاثة أخاه الأول، «شبيابوس»، حبا جما كان هذا صبيا لطيفا، مرحا، وكان يفهم لغة الحيوانات، وكان يمتع كل من حوله بعزفه على مزماره السحري لكن لم يكن مُقَدَّرا له أن يبهج «منابوش» بعزفه وغنائه طويلا، ففي أحد أيام

الشـتـاء، وبينمـا كـان عـائدا إلى منـزلـه، يمشي على سطح الماء العظيم المتجمد، كسرت أرواح الماء الشريرة الجليد تحت قدميه وسحبتـه إلى عـالمها السـفلي إلى الأبد وبالرغم من مصـارعة «منابوش» لهـا إلا أنه لم يرَ «شبيابوس» ثانية، وظل الصبي المرح في أرض الظلال، مملكة الموتى.

وبقدر ما كان «شبيابوس» ودودا ومرحا، كان شوكانيبوك قاسي القلب، شريرا فعندما كان صبيا صغيرا، كان يقتل أو يمثل بكل شيء حي يقع بين يديه وعندما طاف منابوش فيما بعد في العالم ليساعد الهنود، فعل «شوكانيبوك» العكس تماما فبينما كان «منابوش» يرسل الطرائد للهنود، كان «شوكانيبوك» يخلق الوحوش والتنين لتلتهمها؛ كان «منابوش» يهب الناس المرابع الخصبة، بينما لم يتوان «شوكانيبوك» لحظة في حفر فوهات براكين عميقة وبناء صخور شاهقة.

وظل حقد «شوكانيبوك» على «منابوش» والهنود يزداد، حتى صار قلبه حجرا. لقد صبر «منابوش» على أخيه طويلا، لكنه عندما أدرك أن أخاه ماضٍ في غيه طارده حتى الجبال الغربية، وهناك هزمه، لكن بعد طول عراك هز بلاد الهنود قاطبة.

وبعد معركته مع «شوكانيبوك»، لم يبقَ مع «منابوش» في الدنيا سوى جدته «نوكومِس»، التي قالت له ذات يوم:

«لا يكفي أن تفعل الخير للناس، بل عليك أن تُطَوِّف في الدنيا كي تكسب خبرة أكثر عندها فقط يمكنك أن تسدي إليهم المشورة»

وصدع «منابوش» لأمر جدته، فطاف من مخيم إلى آخر، وبأناةٍ تعلم كل شيء من علوم الهنود، وأشار عليهم عندما طلبوا مشورته

وهكذا قاتل البومة «توتوبا» حتى هزمها، لأنها كانت تريد أن تحرمهم من ضوء النهار ثم علَّم الصيادين كيف يسنون رؤوس سهامهم، وأعطى نساءهم قدورا لطهي الطعام.

كان «منابوش» ذكيا جدا، لكن بما أنه كان مبتدئا في تعلم الأشياء، تعين عليه في كثير من الأحيان أن يدفع ثمن خبرته غاليا.

في يوم من الأيام كان يجلس تحت شجرة هائلة وافرة الظلال على ضفة جدول، يحدق في الماء وتراءت له فيها بعض حبّات الكرز الحمراء الرائعة مد يده، لكن الفاكهة المغرية كانت بعيدة المنال، وعندما تقدم قليلا، زلَّت قدمه وسقط في الجدول تماوج الماء واختفت حبات الكرز عندها اكتشف «منابوش» أن شجرة الكرز كانت في الحقيقة تنتصب على ضفة الجدول وأن ما رآه لم يكن سوى انعكاس لأغصانها المحملة بالثمار في ماء الجدول.

«هكذا إذن!» صاح «منابوش» وهو يخرج من الماء ثم تسلق الشجرة على أمل أن يقطف حبات الكرز. وصل قمة الشجرة، وعندما أوشك أن يقطف الثمار سمع صوتا ساخرا يناديه:

«لم تفعل خيرا من أن تبلل نفسك، أليس كذلك؟ إنه، قدر تستحقه!».

سدد «منابوش» ضربة باتجاه الغراب المتهكم، لكن الطير تفاداها وحلق في الجو، وظل يطلق زعيقه الساخر حتى بعد أن توارى عن الأنظار بفترة طويلة.

جلس «منابوش» في الشجرة، ولم يعد يشتهي حبات الكرز لم يكن ما أزعجه سخرية الغراب، بل إدراكه أن الطير قادر على الطيران بسهولة، ففكر «منابوش» وقال في نفسه:

«عليَّ أن أتعلم الطيـــران أيضـــا ولا بأس إن لم أنجح، لأنني سأحط هناك على جَذَعة الشجرة المسطحة تلك».

لم تحدث المعجزة، بل سقط «منابوش» مثل خوخة ناضجة حتى جذعة الشجرة غدرت به، فعلى الرغم من كونها مسطحة فقد كانت مهترئة تماما مما جعل «منابوش» يخترقها ويسقط في هوة كبيرة داخلها.

«ترى، كيف سأخرج من هنا؟» تساءل في نفسه «لن أقوى على ذلك بمفردي».

في تلك اللحظة سمع وقع أقدام تقترب منه كانت عجوزان هنديتان تمران بمحاذاة الشجرة.

«أريد قليـلا من أشـواك الشـيـهم لأزين بهـا حـذائي»، قـالت إحداهن سمعها منابوش، فأطلق شخيرا كشخير الشيهم الحقيقي.

توقفت المرأتان واقتربتا ونظرتا داخل جذعة الشجرة بفضول.

«هل تريدان أشواكي؟» سألهما صوت من الداخل.

هزت المرأتان رأسيهما بدهشة.

«إذن، عليكما أن تجتثا الشجرة بفأسيكما، ثم عليكما أن تغطيا وكري بالأغطية لمنع الريح من الدخول ولقاء صنيعكما هذا، سأغرز لكما قليلا من أشواكي فيها».

استغربت العجوزان ما سمعتا، فأي شَيْهَم غريب هذا الذي يطلب منهما أن يدمرا منزله؟

مع هذا، حزمتا أمرهما، وراحتا تحفران حولها بعد أن غطيا الفتحة بالأغطية.

«والآن، اذهبا إلى الغابة»، أمرهما «منابوش» «لا أريدكما أن تنظرا إلي».

ولبت المرأتان أمره ثانية وفي الحال خرج من سجنه وراح يقفز كأرنب برية بالاتجاه المعاكس ولم يتوقف إلا عندما بلغ أجمة كثيفة ليحتمي بها، وهناك انفجر ضاحكا من خداعه للعجوزين لكنه لم يضحك طويلا، لأن جدته «نوكومِس» ظهرت له فجأة ووبخته:

«أردت أن تصادق الناس وتساعدهم، فلماذا تخدعهم؟ عليك أن تُكَفِّر عن ذلك»

«هذا صحيح»، قال «منابوش» موافقا وهو يشعر بالخزي مما فعل «أرجوك، قولي لي ماذا أفعل».

فأمرته الجدة قائلة: «آتِني بجرائد من لحاء البتولا».

انطلق «منابوش» إلى الأشجار البيضاء اللامعة ساعة الشفق الذي ألبسته الغابة اخضرارا أخاذا، ثم عاد مسرعا يحمل ملء حضنه لحاء وضعه على الأرض عند قدمي «نوكومس» أخذت عددا من هذه الجرائد وبمهارة جعلت منها سلة ما، ثم أخذت شوكة شيْهم لتنظم بها الجرائد وتجعلها محكمة الربط ثم صنعت مزيدا من هذه السلال، وأخذت واحدة منها واتجهت نحو شجرة قيقب قريبة، همست ببضع كلمات ثم ضغطت على جذع الشجرة بالسلة، وإذا بعصير ثخين يقطر في سلتها:

«تعال وذُقْهُ»، نادته «نوكومس» غمس «منابوش» إصبعه في القطر ولحسه لم يذق بحياته شيئا بهذه الحلاوة»:

«إنه سكر القيقب»، قالت شارحة: «اذهب وأخبر الناس أنه حان الوقت لإعداد أوعيتهم».

«هذا قطر ثخين ومُغَذٍّ إن أكله الهنود في الحال، ستصيبهم السّمنة والكسل، ويمكن عندها أن يتفوق عليهم أي، كان يجب ألا يعيش الرجال الحمر على الصدقة»، قال هذا، ثم تسلق الشجرة حتى وصل إلى قمتها وراح يهز الأغصان .

«علام تفعل هذا؟» سألته «نوكومس».

«إني أنفض ماء المطر عن الأوراق كي يسقط على الجذع، مما سيخفف كثافة العصير عندئذٍ يتعين على الهنود أن يغلوه ليلا نهارا، وإلا فلن يحصلوا على السكر وهكذا فقط لن يصيروا كسالى».

«هذه فكرة حكيمة جدا»، قالت نوكومس موافقة «والآن اذهب وعَلِّمهم كل شيء».

وراح «منابوش» يطوف على المخيمات، واحدا إثر واحد، وأينما وُجِدت أشجار القيقب، راحت النساء تصنع الأوعية بناء على تعليماته وبعد ملئها بطعم الأشجار الحلو، أوقدن نارا، فامتلأت الغابة برائحة لذيذةٍ أشهى من أي طعام عرفه الهنود في حياتهم ودهشتهم الكبرى كانت عندما تحول العصير المغلي إلى سكر لم يستطع أحد منهم، خصوصا الأطفال، أن يشبع من هذا الطعام الشهي الجديد.

كان «منابوش» يزور الخيام، والابتسامة بادية على محيّاه كان يفرح عندما يرى الناس يتمتعون بهديته إليهم ففي أحد الأكواخ، رأى طفلا صغيرا يلعب فوق فراء مفروشة على الأرض، ويمص بهناء إصبعا من سكر القيقب، غافلا تماما عن وجود «منابوش» الجبار.

لم يكن منابوش يعرف الأطفال، لكن هذا الصبي الصغير أعجبه في الحال لذلك بدأ يحادثه، لكن واسيس، وكان هذا اسم الصبي، لم يُعِرْهُ أي اهتمام .

راح منابوش يغني، وعندما فشل في جذب انتباهه، راح يرقص لكنه لم يحظَ باستجابة من ذلك المخلوق الصغير أمامه.

غضب «منابوش» وراح يوبخ الصبي الذي انفجر بالبكاء والصراخ، مما أجبر منابوش على سد أذنيه والهروب من الخيمة.

امتلأ الكبار الذين شهدوا هذا المشهد رعبا، فمن غير الحكمة أن يُساء إلى أكبر محسن للبشرية! لكن واسيس لم يكن طبعا سوى طفل صغير، وبدلا من محاولة استرضاء «منابوش»، راح يسخر من هروبه مذعورا.

ضحك الصبي الصغير.

التفت «منابوش» وراءه، لا يعرف هل يشد أذني «واسيس» أم يشاركه مرحه. ولما كان «منابوش» صديقا للهنود، راح يمسد شعر الوغد الصغير بيديه، ثم أعطاه أحلى قطعة سكر لديه.

لنكتفِ بهذا القدر من الحديث عن طيبة «منابوش» ومغامراته. يعرف الهنود من الغابات الشرقية عنه أكثر من هذه الحكايات بكثير، لكن الأطفال يفضلون حكايته مع «واسيس»، وكلما سَرَّهم شيء، صاحوا مثله: «كا، كا، كا».

أوكتيوندو والإوز البري

كان أوكتيوندو يعيش في غابة مترامية الأطراف، ومنذ كان صبيا صغيرا اتخذ لنفسه مسكنا بين جذور شجرة دردار ضخمة، لكن هذه الجذور كبرت وازدادت سماكتها يوما بعد يوم، والتوت بهذا الاتجاه وذاك حتى استيقظ أوكتيوندو ذات صباح ليكتشف أن طريقه قد سُدَّ، ومن حسن حظ الأسير الصغير أن خيمة عمه لم تكن بعيدة.

ورعى هاينثوس ابن أخيه رعاية جيدة، إذ كان يجلب له الطعام والشراب والفاكهة، وما كان على «أوكتيوندو» إلا أن يطلب، فيلبّي عمه الطلب أيا كان.

وهكذا مرت الأيام، وهاينثوس يُقَطِّع الأشجار، ويزيل الأعشاب من محيط خيمته، ويزرع البقول والذرة التي كان يأخذها إلى الصبي الصغير الذي كبر وأصبح قويا.

ولم تعد شجرة الدردار الضخمة قادرة على احتجازه، على رغم أنها حاولت جاهدة ففي أحد الأيام راح «أوكتيوندو» يهز الشجرة بعنف، مما زعزع جذورها، بعد ذلك أصبحت دفعةٌ واحدة كافية لتحرير الصبي، حيث وقف أمام عمه الذي جاء يركض من خيمته وهو لا يصدق عينيه، وبعد أن صحا «هاينثوس» من ذهوله قال:

«لقد تحررت الآن، وأظنك ستصبح صيادا بارعا نظرا لقوتك، سأعطيك قوسا ونشابا، وستذهب للصيد اذهب أنى شئت، لكن تذكر شيئا واحدا: لا تتجه شمالا أبدا إن فعلت، ستجد الويل والثبور».

على رغم أن أوكتيوندو استمع دون أن يقول شيئا أو يسأل سؤالا، فقد أربكته كلمات عمه ولم يستطع إزاحتها من فكره. لقد أثبت أنه صياد ممتاز، لا يخطئ هدفا، تلامس قدماه الأرض والعشب برفق وهدوء عندما يخرج للصيد وسرعان ما عرف كل مرابع الصيد في الشرق والجنوب، وكذلك بالاتجاه الذي تسلكه الشمس عندما تندسُّ في فراشها ليلا، وتذكر تحذير عمه ثانية، لماذا لا يتجه شمالا؟ لقد سبقه هنود آخرون، وعادوا جميعا بغنائم وافرة.

وذات صباح اتخذ أوكتيوندو قرارا بعد أن استأذن «هاينثوس» -كالمعتاد- اتجه جنوبا بمجرد ابتعاده عن ناظري عمه. كان طريقه وسط غابة ولكنه كان يركض من وقت لآخر. وهكذا أحرز تقدما سريعا ثم أخذت المسافة بين الأشجار تتباعد تدريجيا حتى وجد نفسه يقف على شاطئ بحيرة جميلة. كان الشاطئ رمليا، والماء صافيا لا تشوبه شائبة، يداعب سطحه برفق نسيم دافئ، وكانت تنتصب وسط البحيرة تماما جزيرة تبدو كصدفة هائلة.

ظل أوكتيوندو يحدق مذهولا إلى أن أيقظه شخص يناديه وظهرت في الأفق بقعة سوداء، تقترب منه بسرعة ويزداد حجمها رويدا رويدا.

آه، إنه مركب لكن ما ذاك الذي يتقدمه منسابا على سطح الماء؟ إوز! كان الإوز البري يطير على شكل عدة سهام فوق سطح الماء، رافعا مقدمة القارب ويجره نحو أوكتيوندو. وصل القارب إلى الشاطئ وقفز منه هندي غريب، وقال:

«مرحبا بأخي، يسرني مَقْدَمك، لا شك أن هذا الخبر فاجأك، لكننا حقا إخوة وهاينثوس عمي أيضا، ألا تصدقني؟ تعال نرى طول كلٍّ منا».

ووقفا ظهرا لظهر، و وجدا أنهما بطول بعضهما، لا يفوق أحدهما الآخر مقدار شعرة قندس، ثم تكلم الغريب ثانية:

«دعني أرى قوسك وسهامك لقد حصل كلانا عليها من «هاينثوس»، ويجب أن تكون متماثلة لا محالة».

أخرج عدته من القارب وألقى «أوكتيوندو» عدته أمامه وصدق الغريب ثانية، لكن أوكتيوندو تردد في تصديق ما قاله، فلماذا لم يعلمه هاينثوس قط أن له أخا؟

«أرى أنك لا تزال لا تصدقني»، قال الغريب وهو يراقبه «كلانا يجيد إطلاق النشاب والجري، هل ترى جَذَعة الشجرة هناك؟» سأله وهو يشير إلى شيء أسود غامض على الشاطئ الرملي للخليج هز «أوكتيوندو» رأسه «حسنٌ، سدد عليها!» شدّا وتريْ قوسيهما، وأز السهمان في الهواء «تعال، وأمسك النشاب!».

وانطلقا ليمسكا النشابين اللذين يصفران فوق رأسيهما أمسك «أوكتيوندو» نشابه على مسافة عدة أقدام فوق الأرض، ولما التفت رأى الغريب أيضا يمسك بنشابه بالمثل.

«والآن بالعكس!» ومرة أخرى وقفا كتفا لكتف، وشدا قوسيهما، وانطلق السهمان في الجو، ثم أمسكا بهما قبل أن يسقطا على الأرض.

اقترب «أوكتيوندو» من الغريب وقال:

«نحن إخوة حقا ما اسمك؟»

«اسمي «شاكونوثا»، لم يُرِد «هاينثوس» أن أتوجه شمالا، على رغم أنه يمكنك أن تجد من الطرائد ما تشاء هل ترى تلك الجزيرة؟» أشار بيده إلى وسط البحيرة، وهز «أوكتيوندو» برأسه «خيمتي هناك تعال معي».

وركبا القارب الذي دفعه «أوكتيوندو» مبتعدا به عن الضفة، واصطفت الإوز على شكل سرب كأنها تنفذ أمرا سريا، وراح «شاكونوثا» ينشد:

حَلِّقي يا طير، حَلِّقي
فوق البحيرة قودي مركبي،
إلى جزيرة الغابات هيا ارجعي،
فنارها أنسي ومبتغاي ومطمعي.

وكلما علا النشيد، زادت الطيور من سرعتها، ضاربة الماء بأجنحتها حتى أزبد، وكاد المركب أن يطير فوق الماء، ولم يمر وقت طويل حتى هبطا في الجزيرة، كان الشفق المتوهج يوحي بقليل من الشؤم، لذلك سُرَّ «أوكتيوندو» عندما أدخله «شاكونوثا» إلى خيمته، وفي الحال نام «أوكتيوندو»، ولم يعلم أن أخاه تسلل خارجا عند منتصف الليل، ولم يعد إلا قبيل الفجر.

وفي الصباح أخذ «شاكونوثا» أخاه «أوكتيوندو» إلى خليج عميق ترسو في قاعه قطعة صوّان كبيرة.

«هل ترى؟ إلى هنا آتي لألعب»، قال «شاكونوثا» «دعنا نحاول استخراج هذا الحجر»، ثم خلع ملابسه بسرعة وغطس في الماء، بقي الحجر حيث هو، وعامَ «شاكونوثا» إلى السطح، كسير الخاطر.

لم ينتظر «أوكتيوندو» أن يُطلب منه، بل غطس في الماء أيضا، لكن «شاكونوثا» لم يتبعه هذه المرة، بل حمل قوسه ونشابه وملابسه، وانتعل حذاءه، ونادى على الإوز، ثم اختفى وراء الأفق قبل عودة «أوكتيوندو» إلى السطح.

وبحث الصبي عن أخيه كالمسعور في كل أنحاء الجزيرة، وفجأة سمع صوتا مخنوقا يناديه: «أوكتيوندو، «أوكتيوندو»!».

فلم يَرَ أوكتيوندو أحدا.

«تعال إلى هنا، يا «أوكتيوندو»!» ناداه الصوت ثانية هذه المرة، رأى «أوكتيوندو» أنف إنسان بارزة من كثيب رملي ضخم، وعندما دنا منه، تحركت الرمال وخرج من بينها رأس رجل عجوز:

«أنا عمك أيضا يا أوكتيوندو، إن شاكونوثا استعبده غول شرير، وسيكون هذا الغول هنا في أي لحظة، وعليك أن تختبئ في الرمال مثلي إن كنت تحب الحياة لكن هذا لا يكفي، إذ إن للغول كلبا هائلا له عينان كل واحدة منهما بحجم درع هندي، إن لم تقتل هذا الوحش، فإنه سيقتلك، خذ فأس التوماهوك السحرية هذه وعندما يقترب الكلب منك، كل ما عليك أن تقوله هو: عليك به، أيتها الفأس الصغيرة! وستتخلص منه في الحال».

وفي تلك اللحظة التهبت السماء الصافية بالبرق، وهبت ريحٌ صَرْصَرٌ، ودكّت الشاطئ أمواج عاتية.

«هيا، هيا»، صاح العجوز.

أمسك أوكتيوندو بالفأس واختفى في الرمل وسرعان ما ساد السكون التام ثانية، وراح كلب هائل يتفحص الشاطئ الرملي بفم كأنه بوابة كوخ، وعينين كأنهما زوج من الدروع، وعندما اقترب من

مخبأ أوكتيوندو، قال الصبي:

«عليكِ به، أيتها الفأس الصغيرة!».

وقفزت الفأس من غمدها، ونهضت في الجو، وألقت كلب الغول صريعا على الرمال في طرفة عين:

«لا تغادر ملجأك!» صرخ العجوز محذرا أوكتيوندو «إن لمحك الغول، كانت نهايتك!».

لم يتأخر الغول في المجيء، كان كبيرا ذا لون أسود كالح كصخرة هائلة، يبرز من فمه سنان معقوفان كان هائجا، يهز رأسه القبيح، يلوِّح بيديه مهددا، يتفوه بلعنات غريبة تهدر كالرعد، التقط الكلب الصريع، وتوارى يرافقه الهزيم من بعيد.

وتنفس «أوكتيوندو» الصعداء.

«حذارِ»، نصحه العجوز ثانية: سيعود الغول ليلا عندما يشتد جوعه وعلينا أن نخرج من الجزيرة قبل عودته».

«لكن ليس لدينا مركب»، قال «أوكتيوندو».

هز العجوز رأسه بأسى «أجل، معك حق إن الغول جبار ولن نتمكن من الهروب أبدا». في تلك اللحظة بالذات تناهى إلى أسماعهم نشيد مألوف آت من الماء:

حَلِّقي يا طير، حَلِّقي

فوق البحيرة قودي مركبي،

إلى جزيرة الغابات هيا ارجعي،

فنارها أنسي ومبتغاي ومطمعي

لقد عاد «شاكونوثا» اختبأ «أوكتيوندو» والعجوز بسرعة في الرمال مرة أخرى، قفز الأخ الشرير من مركبه إلى الشاطئ وجرى

نحو خيمته، كان يريد أن يتأكد من موت «أوكتيوندو»، لذلك راح يبحث عن آثار للدم وكان هذا تماما ما ينتظره «أوكتيوندو»، فما إن توارى «شاكونوثا» عن الأنظار، حتى ركب «أوكتيوندو» وعمه العجوز القارب وانطلقا بأقصى سرعة ممكنة.

فتش «شاكونوثا» الجزيرة بلا طائل، وبدا أن الأرض ابتلعت «أوكتيوندو» رجع إلى الخليج غاضبا ومنهكا، فوجد مفاجأة أخرى بانتظاره، لقد اختفى قاربه، لقد علم «شاكونوثا» الآن أين ذهب «أوكتيوندو»، فراح يلعنه ويرتجف خوفا من الغول.

وسمع صوت الرعد يدنو من الجزيرة، فعلم أن الغول قادم، أومض البرق فوقف الغول أمام «شاكونوثا»، وعيناه تلتهبان كجمرتين.

«وأخيرا أمسكت بك!» صاح به «سوف ألتهمك!».

انتحب «شاكونوثا» ككلب خَبِرَ السياط، وزحف أمام الغول على الأرض، محاولا إقناعه أنه ليس «أوكتيوندو»، لكن الجوع والغضب جعلا الغول أعمى، ثم أمسك بشاكونوثا وهزه بعنف، وبلحظة توارى خادمه المطيع في حنجرته.

وهكذا لقي الأخ الشرير جزاءه العادل.

في هذه الأثناء بلغ «أوكتيوندو» وعمه شاطئ البحيرة.

«هناك شيء آخر عليك أن تنجزه يا «أوكتيوندو»، قال العجوز «إن أختك سجينة في خيمة الغول، على مقربة من هنا في الغابة، عليك أن تسرع وتحررها قبل عودته أنت عدّاء جيد، وسينير القمر لك دربك هيا، اذهب حالا!».

وانطلق «أوكتيوندو» كالنشاب على الدرب الذي أناره وهج القمر الباهت، وحالا وصل إلى هدفه لم تصدق أخته عينيها، بعد

أن فقدت الأمل في نجاتها أخذها من يدها وأسرعا عائدين سوية. ركبا القارب مع عمهما وراح «أوكتيوندو» ينشد:

حَلِّقي يا طير، حلِّقي
فوق البحيرة قودي مركبي
إلى بلادي خذينا، هيا ارجعي
فنارها أنسي ومبتغاي ومطمعي

وطارت الإوز البرية بسرعة لا يستطيع الغول أن يجاريها مهما حاول، لكنه عندما رأى ما حدث، ركز نظره عبر المدى فانطلق من عينيه شهاب أنار الظلمة وكشف الفارّين، أخذ أكبر صناراته وربط بها أمتن أسلاكه ثم سدد بعناية وألقى بها خلفهم، علقت الصنارة بمقدمة القارب الذي راح ينساب عائدا إلى الجزيرة، يجره سلك الغول جرا أوشكوا أن يصلوا إلى الشاطئ، عندها تذكر «أوكتيوندو» فأس «التوماهوك» السحرية.

«عليك به، أيتها الفأس الصغيرة!» صاح، فوثبت الفأس من غمدها وبضربة واحدة قطعت الحبل وحررتهم.

لكن الغول أبى أن يتخلى عن فريسته، وعندما رأى أن قوته لا تجدي، راح يشرب الماء، شرب وشرب وظل الماء يتناقص حتى أصبح المركب أمام فكّي الغول، وفي اللحظة الأخيرة التقط «أوكتيوندو» قوسه وسدد سهما إلى معدة الغول فعاد الماء إلى البحيرة ثانية.

«سأهلككم الآن!» زمجر الوحش، وزفر دفقة من الهواء الصقيعي، فتجمد ماء البحيرة في الحال وأحكم الجليد قبضته على المركب والإوز، فلم تستطع حراكا وانطلق الغول يعدو نحوهم

فوق السطح المتجمد، ولما اقترب من مركبهم، نهض العجوز الحكيم على قدميه وتلى بعض العبارات السحرية، فراح الجليد يذوب في الحال، وقبل أن يتمكن الغول من ملامستهم، تهشَّم الجليد تحته وغاص في الماء إلى غير رجعة.

ونجا الهاربون الثلاثة، وخلال زمن قصير وصلوا إلى خيمة «هاينثوس» تحت شجرة الدردار الضخمة، وعاشوا هناك بسعادة ووئام إلى أن ناداهم كبير الأرواح إليه.

أما الإوز فقد أطلق «أوكتيوندو» سراحها لكنها لم تفترق، ولا تزال حتى يومنا هذا تطير على شكل سهم، فيعرف الهنود، عندما ينظرون إلى السماء، أنها تهاجر.

«ويهايو» السائح

عندما وُلِدَ ويهايو، حَبَتْهُ جِنّياته القلقة حب الأسفار ومزاجا مرحا، ولم يأسف لهذا على الإطلاق، وخصوصا عندما اكتشف أن حياة السائح أمتع من حياة الذين لا يغادرون خيامهم أبدا، وأن السفر مجلبة للسرور.

وما إن تعلم فن الرماية حتى ابتعد عن موطنه، يشق طريقه بجرأة نحو الغابات الهائلة المُزْرَقَّة تحت الجبال المكسوة بالثلج في الشمال البعيد.

كانت هناك مشاهد كثيرة إلى درجة أن عينيه اللتين ألفتا الأرض الجرداء المنبسطة احتارتا إلى أي جهة تلتفتان، هناك جداول دافقة بسرعة تقفز فوق كل ما يعترض طريقها، وفُسحات مشمسة بين الأشجار، وأشجار صنوبر باسقة لا يُرى لها رأس.

وجد «ويهايو» حيوانات لم يرها من قبل، وراح يكلم كل واحد منها في الحال وهكذا تعلم من الغابات الحكمة، كما أنه تعلم من بين ما تعلم، أن زعيم الحيوانات هنا في الشمال هو دب كبير مرعب، وكان حارسا غيورا على مرابع صيده الغناء عند نهر الدب، وكان يصد عن حياضه كل المعتدين.

لكن ما قيمة أن يكون المرء مثل «ويهايو» إن لم يستطع خداع ذلك العملاق المزمجر؟.

حدث ذلك في الشتاء، وصل ويهايو إلى نهر الدب المتجمد، وجعل خرقا في الجليد وراح يصطاد السمك، غير مكترثٍ بقرب عرين الدب، وسرعان ما سمع وقع أقدامٍ آتية من خلفه وزمزمة غاضبة، لكن ويهايو تظاهر بأنه لم يسمع شيئا، بل راح ينتشل الأسماك بهدوء من تحت الماء، واستشاط الدب من الغضب وزمجر قائلا:

«كيف تجرؤ على المجيء هنا وتصطاد أسماكي؟».

تطلع إليه «ويهايو» وابتسم ابتسامة ودية:

«آه، لقد أتيت أخيرا، لقد سمعت أنك لا تستخدم إلا مخالبك لاصطياد السمك، ولهذا يفلت الكثير من قبضتك، لقد جئت لأعلمك كيف يمكن أن تصطاد من السمك ما يليق بمقامك انظر!».

وضع «ويهايو» طُعما جديدا في صنارته وقذفها في الماء، وسرعان ما اصطاد سمكة رائعة سال لمنظرها لعاب الدب.

«كل هذا رائع، لكن ليس لدي صنارة للصيد»، قال الدب شاكيا.

«لا يهم»، أجاب «ويهايو» «فلديك ذيل لحيم رائع لا تستطيع أي سمكة مقاومة إغرائه، أنا أرتأي أن تدير ظهرك للماء، وتغمس ذيلك فيه، وما إن تشعر بعضة السمكة حتى تسحبها بسرعة».

«حسنٌ، هذه ليست فكرة سيئة، على ما أظن لكني أحذرك، لا تحاول خداعي، وإلا فستكون عاقبتك وخيمة!» قال الدب هذا الكلام وهو يهز مخلبا هائلا أمام وجه «ويهايو». ثم جلس على حافة النهر بلا تردد وفي الحال شعر بأن شيئا يمسك بذيله، انتظر قليلا ليسمح للسمكة أن تتمكن جيدا، ثم نتر ذيله، لكنه علق في الخرق الجليدي».

«هيّا ساعدني»، نادى على «ويهايو» «لقد اصطدت سمكة كبيرة!».

«لا تكن أحمق!» صاح «ويهايو» وهو يقهقه بصوت عالٍ «لم تصطد شيئا، بل تجمد ذيلك في الخرق هذا جزاء الأنانية!».

جمع «ويهايو» ما اصطاده، ووضعه في كيسه، ثم راح يجرجر قدميه ببطء، يدندن أغنية عن دب غبي .

صاح الدب وحاول أن يخلص ذيله من الجليد، لكنه ظل عالقا لذلك تعين عليه أن يستجمع كل ما أوتي من قوة، وفعلا نتر ذيله من الماء بقوة، فتدحرج على رأسه، ثم سقط على الأرض لم يبق من ذيله إلا جَدَعة قصيرة، لقد لقنه «ويهايو» درسا بالفعل.

تابع «ويهايو» تجواله، وغادر الغابات المغطاة بالثلوج حتى وصل إلى بلاد الصخرة الحمراء والشِّعاب العميقة، كانت جميع القرى الهندية في هذه الأثناء خالية.

ترى لماذا؟ تساءل في نفسه وفي الحال سمع الجواب. كانت هناك بومة كبيرة تسيطر على هذه المنطقة، ولما كانت تختطف الأطفال الصغار ليلا، نزح الناس إلى مناطق آمنة، وفي الحال حزم «ويهايو» الأمر على إيجاد هذا الطائر الشرير الذي لا يعرف أحدٌ أين يجده.

لهذا تنكر ويهايو في زي طفل صغير وانتظر قدوم البومة.

وعند منتصف الليل ـ تماما ـ سمع نعيب بومة، ثم حفيف أجنحة جبارة، فجأة التقطته البومة بين مخلبيها وحلقت به في الجو.

لم يطيرا طويلا، إذ إن عش البومة كان في جوف صخرة قريبة، وإليه حملت ويهايو، لقد كانت مزهوّة جدا بفريستها، وعندما أدخلته العش، راحت تتبجح:

«لا يستطيع أن يتغلب عليَّ أحد، ولن تغادر هذا المكان حيًّا، إنني أتطلع إلى الوجبة الرائعة التي ستكونها!».

تصرف «ويهايو» كأن الأمر لا يعنيه على الإطلاق، بل مد يده داخل كيسه وأخرج شيئا راح يأكله بتلذذ.

«ماذا لديك هناك؟» سألت البومة وهي تمط عنقها بفضول.

«قطعة من سكر القيقب هل تريدين قليلا منه أيضا؟».

«بل أعطني كل ما لديك!» أمرته البومة بتعالٍ.

مد ويهايو يده ثانية في الكيس، ولكن هذه المرة استخرج قليلا من القار الناعم، بدلا من أن يستخرج قطعة من سكر القيقب كالتي كان يطحنها بين أسنانه، لم ترتب البومة، بل راحت تلتهمه، وعندما وجدت صعوبة في مضغه ضغطت شقَّيْ منقارها كي تقطعه، لكنها سرعان ما اكتشفت خطأها، لقد كزَّت فكيها على القار، ولم تعد قادرة على فتحهما، فخرج «ويهايو» ضاحكا.

وعندما خرج من جوف الصخرة، أضاف إلى أغنيته عن الدب الغبي بضع كلمات جديدة، وراح يغني عن بومة أكثر غباء .

كانت البومة لا تزال تضرب منقارها بشدة على الصخرة عندما وصل ويهايو إلى أرض مستنقعية بعيدة لم يكن يعلم أن هذه الأرض هي موطن أكثر التماسيح فظاعة.

لكنه لم يكتشف ذلك إلا بعد أن فات الأوان انفتحت أمامه مغارة هائلة تشبه مدخل كوخ خطوة واحدة كفيلة بأن تقود «ويهايو» إلى هلاكه.

«تقدم، تقدم!» حثه التمساح بصوت أجش مزعج «لن تنجو مهما حاولت»

«لو رأيتك قبل أن تراني، لكنت أنت الهالك!» قال له «ويهايو» ضحك التمساح

«لا بد أنك تمزح! هيا أرني!».

«ما نفع الكلام الآن؟ أنا واثق أنك أكثر الحيوانات سطوة، لكن بما أنني سأفارق الحياة، على الأقل أرني أسنانك كي أرى ما ينتظرني».

شعر التمساح بالإطراء ففتح فمه إلى أقصى ما يستطيع، ومد لسانه الأحمر، كان هذا ما يريده «ويهايو» تماما؛ فاستخرج حجرة كبيرة من كيسه وقذفها في فم التمساح ليمنعه من إغلاقه ثانية، ثم قصَّ لسانه بسرعة.

راح التمساح يصرخ ويئن من الألم والغضب، لأنه لم يستطع أن يتخلص من الحجرة في فمه.

أما «ويهايو» فقد تابع تجواله أما الأغنية التي راح يدندنها هذه المرة، فكانت تحكي سبب قصر لسان التمساح.

سافر لعدة أيام، حتى بلغ منه الجوع مبلغا. وعلى رغم أنه بحث في كل مكان عن شيء يأكله، لم يجد شيئا.

وعندما التقى أخيرا بقيّوط استبشر خيرا، إذ إنه كان واثقا أن هذا الوغد المحتال يعرف مظان الأطعمة الشهية لهذا استوقفه وقال:

«مرحبا يا أخي! يبدو أنك على خير ما يرام من الغذاء، قل لي أين يجد المرء طعاما جيدا».

أبدى القيّوط في البداية شيئا من الامتعاض، لكنه في النهاية قال: «حسنٌ، اسمعني جيدا: هناك خيمة خلف تلك الرابية، وفيها من اللحوم المجففة أفضل ما يتصوره الخيال، أنا شخصيا تَنَعَّمت بهذه الملذات عدة مرات، لكنهم أشبعوني ضربا أيضا، ودعوني لصا وصعلوكا، لا أنصحك بدخول تلك الخيمة».

فكر ويهايو بالأمر مليا، وتبين أن القيّوط كان على حق، إذ يبدو أن ساكن تلك الخيمة بخيل لا يريد أن يشرك غيره في طعامه لكن خطرت له فكرة رائعة:

«الآن جاء دورك لتصغي إلي»، قال ويهايو للقيّوط «سأتنكر بزي امرأة، وسأحملك على ظهري في هذا الكيس، عليك أن تنتحب كطفل جائع، وسترى أنهم لن يتوانوا عن إطعامنا».

استمع القيّوط بعناية، ثم حك ظاهر أذنيه

«حسنٌ، سيكون هذا صعبا علي، لكن يجب أن تعدني ألا تفعل أكثر من أن تتذوق كل قطعة لحم نحصل عليها وتترك الباقي لي».

وعد «ويهايو» أن يفعل كما طُلِبَ منه، لأنه كان يعرف أن القيّوط لن يساعده ما لم يعده بذلك، كما أن لديه متسعا من الوقت ليفكر فيما سيفعله لاحقا.

وهكذا وضع القيّوط في الكيس على عجل، وربط عنق الكيس بحيث لم يظهر منه سوى عيني القيّوط أما هو فقد تنكر في زي امرأة هندية، وحمل الكيس على ظهره، تماما كما تحمل الهنديات صغارهن، واتجه نحو الخيمة خلف الرابية.

كان هناك رجل يجلس داخلها، فسأل:

«لماذا يبكي صغيرك هكذا؟».

«إنه يبكي من شدة الجوع، وليس لدي ما أطعمه»، رد ويهايو بصوت ذي نبرة عالية.

أخذ الرجل بضع قطع من اللحم المجفف وناولها الى «ويهايو» دون أن ينطق بكلمة واحدة.

كان اللحم لذيذا، وراح ويهايو يتمتع به كثيرا، ولم يعط القيّوط، الذي أخذ يتململ ويتذمر في كيسه، سوى العظام والقطع القاسية التي لم يستطع هو أن يأكلها.

شكر الرجل على عطائه، وغادر الخيمة واتجه نحو النهر كان القيّوط يستشيط غضبا.

«انتظر حتى أخرج! سأشبعك ضربا لخداعي هكذا!».

لم يكترث ويهايو بتهديدات القيّوط، بل أنزل الكيس وقذفه في النهر ثم جلس لبضع لحظات بين الأعشاب الخضراء، يراقب شلالات الماء وهي تحمل الكيس بعيدا، ثم راح ينظم قصيدة جديدة، لكن هذه المرة كان موضوعها القيّوط، أغبى الحيوانات قاطبة.

البجعة الأرجوانية

في يوم من الأيام كان هناك زعيم لديه ثلاثة أولاد، وقبل وفاته بوقت قصير دعاهم إليه ليورثهم إرثه الوحيد، وعندما دخلوا عليه اعتدل في جلسته على سريره الفرو للمرة الأخيرة، ثم خاطبهم بصوت خفيض، وكان وجهه باتجاه الشمس الغاربة:

«لقد ضعف بصري، وأعلم أنه حان وقت رحيلي إلى أرض الظلال، لكن قبل أن أنطلق في رحلتي الطويلة، أريدكم أن تأخذوا هذه الهدية مني».

مد العجوز يده تحت الفراء، وأخرج جعبة طويلة مزينة بإبر الشيهم ناولها لأكبر أولاده الثلاثة وقال:

«في داخلها ثلاثة سهام سحرية، احتفظوا بها واعتنوا بها جيدا، لقد أعطاني إياها والدي، وهو محارب مشهود له، وقد تلقاها بدوره من جده، الذي كان أشهر النَشّابين على الإطلاق، والآن اتركوني، لأنني أريد أن أخلو بنفسي».

وفي اليوم التالي انطلق الزعيم العجوز في رحلته لينضم إلى أسلافه نعته القرية بأكملها، واستذكر أهلوها مآثره وحكمته.

لكنهم نسوه مع مرور الزمن، وهذه سنة الكون، أما الإخوة الثلاثة فقد ظل وجه والدهم ماثلا أمامهم كلما تحلقوا حول السهام السحرية الثلاثة.

وفي إحدى الأمسيات خرج أصغرهم، ويدعى أوجِبوا، إلى الصيد، وما إن خرج من المخيم حتى عثر على أثر جديد لدب،

فاقتفاه ولما كان أوجبوا عدّاء سريعا، استطاع أن يلحق بالدب ويقتله قبل غروب الشمس وبينما هو يسلخ فريسته، التهبت السماء بلون أرجواني، وصدر صوت غريب كئيب من أعمق بقعة بدا كأن الريح تعزف على قيثارة سحرية.

توقف أوجبوا عن العمل ونظر باتجاه الصوت الساحر، ثم ألقى بسكينه جانبا، وراح يعدو في الغابة ملاحقا الوهج الأرجواني.

ظل يركض طويلا حتى وصل إلى ضفاف بحيرة كبيرة، وعند التقاء سطح الماء الأزرق بالسماء الملتهبة، رأى بجعة أرجوانية جيداء كانت البجعة هي التي تشدو، فطرب لشدوها الشجي أيما طرب.

«يجب أن تكوني لي!» صاح وهو يشد وتر قوسه، لكن كل سهامه أخطأت هدفها، كأن قوة سحرية تحرفها عن هدفها.

تساءل أوجبوا عما يجب أن يفعله ثم تذكر إرث والده، فعاد إلى المخيم يسابق الريح، التقط السهام السحرية الثلاثة وعاد إلى ضفاف البحيرة ثانية على جناح السرعة.

وبدت البجعة الأرجوانية كأنها تنتظره، أطلق أوجبوا السهم الأول، لكنه سقط على مقربة منه، ولم يكن أوفر حظا مع الثاني الذي لامس ريش البجعة، ثم وقع على سطح الماء، أما السهم الثالث فقد أصاب هدفه، لكنه لم يقتل البجعة الأرجوانية وبخفقة هائلة من جناحيها راحت تصعد في السماء صعودا مهيبا، ثم تلاشت وراء غيوم السماء المتلبدة، كما تلاشت في السكون أغنيتها الشجية.

ومضى وقت قبل أن يصحو أوجبوا من ذهوله ويدرك أن البجعة ولت بسهمه الثمين.

«علي أن أجدها أو أعيد السهم، وإلا ستطاردني لعنات أخَوَيَّ حتى مماتي لأنني أضعت ميراث أبينا»، قال لنفسه، ثم انتشل السهمين الآخرين من البحيرة ووجد على أحدهما ريشة أرجوانية من جناح البجعة، فخبأها بعناية قبل أن ينطلق في رحلة بحثه عن ذلك الطائر الغريب.

قضى طوال الليل واليوم التالي بين مشي وعدو، حتى وصل أخيرا إلى قرية هندية مجهولة ورحب به زعيمها بنفسه، وقامت ابنته ذات الوجه الجميل المشرق بحراسته حتى الخيط الأول من الفجر، بينما كان يغط في نوم عميق.

وعندما استيقظ أعطته زوجا من النعال بدلا من الزوج الذي تمزق في اليوم السابق، ثم رافقته مسافة لا بأس بها إلى خارج القرية كي تدله على الطريق.

ظل أوجبوا يركض سحابة يومه إلى أن أقبل الليل ورأى أمامه أشباح مخيم هندي رحب به زعيم المخيم، وقامت ابنته بحراسته طوال الليل، وعند الفجر أهدت إليه زوجا جديدا من النعال وكذلك رافقته مسافة لا بأس بها من الطريق، ونفسها تقطر أسى لفراقه، إذ شغف قلبها به، وتمنت في سرها لو بقي معهم إلى الأبد.

ومرة أخرى راح أوجبوا يعدو ويعدو إلى أن رأى في تلك الليلة ضوءا يومض في كوخ وحيد ولما دخله وجد عجوزا مجهولا رحب به أجمل ترحيب

قال العجوز: «كنت أنتظرك منذ زمن طويل، أنا أعلم من أنت، وأعلم الوجهة التي تقصدها: إنك تبحث عن البجعة الأرجوانية،

إنها تعيش على مسافة رقاد ليلة من هنا مع والدها، وهو ساحر جبار، وفي إحدى المرات فقد فروة رأسه وهو يتقاتل مع أعدائه، ومنذ ذلك اليوم وهو يقاسي الأمرين، ولن يكف عن ذلك حتى يجد صيادا شابا بارعا وشجاعا كي يسترد له فروة رأسه واعلم أيضا أن البجعة الأرجوانية تصدح بتلك الألحان الشجية إشفاقا على والدها المسكين لكن الهلاك كان مصير كل من سحرتهم بشدوها من قبلك».

«لست خائفا»، قال أوجبوا للعجوز «سأذهب لأحضر فروة رأس الساحر، إني على يقين أن الأرواح لن تخذلني».

هز العجوز رأسه

«أتمنى لك النجاح من كل قلبي، لكن تذكر ما سأقوله لك الآن: غدا صباحا ستسمع صوت الساحر، لكن إياك أن تنظر إلى رأسه المسلوخ في النهار ولا منجاة لك ما لم تنظر إليه في وهج النار.

«فلو رأيت الساحر في وضح النهار، لفقدت صوابك من الرعب ثم لا تنس ريشة البجعة، عندما تحاول استرداد فروة الرأس»، أضاف العجوز بشيء من الغموض.

شكر أوجبوا للعجوز نصيحته، وبعد تناوله قليلا من الطعام، راح يغط في نوم عميق وطويل وفي الصباح أيقظه العجوز، ورافقه في الطريق حتى سمعا نحيب الساحر.

«عليك أن تذهب الآن بمفردك، لا تنس ما قلته لك، وتمهل»، حذره العجوز ثم توارى في غيهب الغاب.

امتثل أوجبوا لأمر العجوز، ولم يدخل كوخ الساحر قبل حلول المساء، حيث وجد رجلا يجلس بجانب النار وهو

ينتحب ولما ألقى أوجبوا نظرة واحدة على رأسه، ارتعد من الرعب، وتراجع إلى الوراء رغما عنه إلا أن طيف البجعة الأرجوانية ألهمه من الشجاعة ما جعله يقدم ثانية ويسأل بقلب ثابت:

«أرجوك أن تخبرني أين أجد فروة رأسك، لأنني أود مساعدتك».

«من أنت كي تجرؤ على رؤية وجهي دون أن ترتعب؟»، سأل الرجل وهو يرمق الشاب بعينيه «لقد مضى زمن طويل دون أن يعرض أحد مساعدته علي، لقد حمل أعدائي فروة رأسي إلى مخيمهم الذي يبعد عن هنا مسافة ثلاث ليالٍ من الرقاد، باتجاه الشمال إن جئتني بها، فسأعيد إليك نشابك السحري، وسأجزيك جزاء لا يخطر لك حتى في أحلامك».

«يمكنك أن تثق بي»، رد أوجبوا «سأبدأ رحلتي حالا».

بعد ثلاث ليالٍ تامة من الرقاد، رأى أوجبوا الدخان يرتفع من سطوح الأكواخ وسمع أصواتا بشرية توقف ونظر حوله بحذر، ولما رأى الحراس يحيطون بكل أنحاء المعسكر، أدرك أنه لن يستطيع أن يتسلل بهيئته العادية، ثم تذكر ريشة البجعة الأرجوانية مَسَّدها برفق، فإذا به يتحول إلى طائر رفراف.

صار بإمكانه الآن أن يتفحص المعسكر بروية كانت بعض الأعمدة تنتصب بين الأكواخ، وكانت فروة رأس الساحر تنتصب أعلاها.

انقض نحو فروة الرأس، وعندما أوشك أن يلتقطها، انتبه الهنود إلى هذا الطائر ذي الألوان البراقة وراحوا يوجهون إليه سهامهم أسقط الرفراف ريشة أرجوانية من منقاره، فتهادت نحو

العمود، وعندما التصقت بفروة رأس الساحر، حملتها الريح إلى الغابة المجاورة، حيث كان أوجبوا بانتظارهما في هيئته الآدمية وقبل أن يدرك الهنود ما حصل، توارى أوجبوا في الغابة، عائدا إلى الساحر يحمل إليه فروة رأسه.

«ضع الفروة على رأسي، وسأجازيك»، قال له الساحر لدى وصوله وعندما امتثل أوجبوا للأمر، وجد نفسه فجأة أمام رجل وسيم طويل القامة بعينين تبتسمان له ابتسامة لطيفة.

«لقد أسديت لي معروفا عظيما بإعادة فروة رأسي إلي، ومكّنتني من استعادة هيئتي كرجل لن أنسى لك ذلك، هاك نشابك السحري والآن ادخل كوخي وخذ جزاءك إنها كنزي الوحيد، ويسرني أن تناله».

- دخل أوجبوا الكوخ، فتسمر مكانه، إذ رأى أمامه أجمل غادة عرفتها بلاد الهنود فعيناها المتلألئتان تثيران حسد النجوم، واحمرار شفتيها مفخرة للورود، وساقاها يثيران غيرة الظباء.

«أنا البجعة الأرجوانية»، قالت له «لقد ملكت قلبي لمساعدتك لوالدي، إن شئت سأصير زوجة لك».

طبعا وافق أوجبوا وقبل حلول الظلام ودع الساحر وانطلق مع عروسه في رحلة العودة إلى بلاده.

آهايوت وآكل السحاب

في الجزء المشمس من بلاد الهنود كان يشمخ جبل هائل، يشبه من بعيد كوز ذرة ولهذا السبب سماه الهنود جبل الذرة كان آهايوت وجدته يسكنان هناك في أعلى قمة الجبل كانت حياته مثل حياة بقية أولاد الهنود، ولولا رغبته في عمل شيء يجعله رجلا ومحاربا، لما كان في هذه القصة.

قد يبدو من الوهلة الأولى أنه من السهل على آهايوت أن يحقق رغبته، إذ كان سريعا كالظبي، رشيقا كالسمكة، قويا كالبيسون، ولا مثيل له لكن الزمن مر على النهر الكسول الدافق برفق، وبينما صار كثير من أقرانه رجالا، ظل آهايوت ينتظر فرصته كان يعود إلى البيت مهموما مغموما وغالبا ما كانت تعاف نفسه حتى الطعام.

«أنا أعرف ما يضايقك»، قالت له جدته ذات يوم «وأعرف أيضا كيف أساعدك، لكن أخشى أنها ستكون مهمة لا تستطيع إنجازها».

«لست جبانا»، رد آهايوت «وهذه هي المهمة التي كنت أنتظرها»

«حسنٌ إذن، استمع إلي»، قالت جدته، خافضة صوتها مما أوجب على الصبي أن يقترب من جدته كي يسمع ما تقول

«لقد مضى زمن طويل منذ أن استقر آكل السحاب في الشرق»

«آكل السحاب؟».

«نعم، آكل السحاب إنه طويل بطول جبل الذرة، وعندما يفتح فمه يمتد مدى الخافقَينِ إنه يأكل السحاب، ولهذا تشح الأمطار، فيموت الزرع والضرع من العطش».

«ألم ينتصر أحد أبدا على آكل السحاب؟».

«لقد سافر كثير من البواسل شرقا، لكن لم يعد منهم أحد»

«حسنٌ، أنا لست خائفا، وسأقاتل آكل السحاب».

قالت الجدة وهي تُخرج أربع ريشات لكل منها لون مختلف:

«حسنا، كما تشاء لكن ستكون معركة غير متكافئة، كل ما أستطيع عمله هو أن أعطيك هذه الريشات السحرية الأربعة لتأخذها معك.

«إذا وضعت الريشة الحمراء في شعرك ستقودك مباشرة إلى آكل السحاب أما الريشة الزرقاء فستساعدك على فهم لغة الحيوانات وللريشة الصفراء قدرة أعظم، إنها تستطيع أن تجعلك من الصغر بحيث تستطيع أن تدخل في جحر فأرة أما الريشة السوداء فستمنحك القوة التي تحتاج إليها في لقائك مع آكل السحاب».

لم يسأل آهايوت أي أسئلة، بل خبأ الريشات الأربعة بعناية، وقبل أن تنهي الطيور أنشودة واحدة كان جاهزا للانطلاق ودع جدته، ووضع الريشة الحمراء في شعره، وفي الحال ترك جبل الذرة وراءه في البعيد.

ظل آهايوت يسافر شرقا طوال الوقت حتى وصل مملكة آكل السحاب كانت الأرض هناك قاحلة، والعشب ذابلا أو جافا تماما، وكانت تتناثر في بعض الأمكنة جذوع الأشجار الميتة بدت الحياة كأنها انقرضت تماما وحده الخلد أطل بفضول من جحره ليتفحص القادم الجديد.

«مرحبا»، حَيَّاه آهايوت وهو يستخرج الريشة الزرقاء «كيف السبيل إلى آكل السحاب؟» سأله في لغة الخلد.

«إنه يبعد مسافة بضع ليالٍ من الرقاد فقط»، أجاب الخلد «لكن حذار: إن الموت مصيرك إن رآك آكل السحاب انظر»، وأشار المخلوق الصغير إلى الأرض القاحلة «كل هذا مما صنعته يداه؛ لقد دمر كل شيء حي، أما أنا فقد نجوت بنفسي لأنني أعيش تحت الأرض».

لم يزد آهايوت كلمة واحدة، بل غرز الريشة الثالثة في شعره، وفي الحال راح حجمه يصغر حتى أصبح بحجم الخلد.

«يمكنني الآن أن أتنقل في ممراتك، وهكذا لن يراني آكل السحاب، ويمكنني الوصول إليه من دون صعوبة».

«أرى أنك لست شجاعا فحسب، بل واسع الحيلة أيضا، لم يفكر أحد من أسلافك في طلب مساعدتي، وجميعهم هلكوا. إنه لمن دواعي سروري أن أدلك على الطريق».

انحنى آهايوت قليلا، إذ إن الممر في باطن الأرض كان منخفضا قليلا، ثم تبع الخلد بحذر بينما أخذت عيناه تألفان ظلام النفق.

ولم يتوقفا إلا للراحة أو الأكل كان الخلد يخزن الطعام بكميات كبيرة في أماكن معلومة على طول النفق، ولم يحزن الصبي إلا لأنه لم يستطع أن يطهو طعامه، فالخلد لا يحب النار، خصوصا الدخان.

وفجأة بدأ الطريق يلتوي هنا وينعطف هناك، فقال الخلد:

«نحن الآن تحت كوخ آكل السحاب، لو أصغيت لسمعت الأرض ترتج» وسقطت عدة أحجار كبيرة في الممر، واهتزت الجدران اهتزازا عنيفا

«إن آكل السحاب يتقلب الآن في نومه»، شرح الخلد، غير آبهٍ باهتزاز الأرض الرهيب «علينا أن نتقدم قليلا».

وصلا نهاية الممر، فإذا به يتسع ويفضي إلى غرفة كبيرة. اعتدل ظهر آهايوت، لكنه سرعان ما أخفض رأسه، لأن السقف راح ينخفض بانتظام حتى يكاد أن يلامس الأرض، كانت دقات عالية جوفاء تتناهى إلى أسماعهما من فوق

«إنه خفقان قلب آكل السحاب»، همس الخلد: «إنك بحاجة إلى قوة هائلة حقا إن أردت أن يصله نشابك».

وهنا أخرج آهايوت ريشته الأخيرة، أي السوداء، فإذا به يشعر أن قوة رجل ومحارب تسري في عروقه عندئذ باعد بين قدميه، ووضع أفضل نشاب في قوسه، وسدد على النقطة التي كان ينحني عندها السقف أكثر.

شد وتر القوس، وأطلق السهم ثم علا زئير رهيب اهتز له كل شيء حولهما كان آخر شيء رآه آهايوت هو السقف وهو ينهار فوقه.

ولما صحا، كان ممددا على العشب، وكان الخلد يمسح جبينه، وعلى مقربة منهما كان الوحش الأفعواني الهيئة جثة هامدة.

«إنك رجل شجاع! لقد نجحت»، صاح الخلد مسرورا «كان آكل السحاب يمطرنا بين سكرات الموت بالحجارة فأغمي عليك لكنني حفرت نفقا جديدا، وأخرجتك فوق الأرض انظر هناك»، قال مشيرا إلى آكل السحاب «إنه ميت، لقد اخترق سهمك قلبه، ولن يعذب أحدا بعد اليوم!».

تطلع آهايوت إلى السماء طافت سحابات المطر على نحو منخفض، جالبة معها الرطوبة إلى البلاد، ومعلنة أن آهايوت قد أصبح منذ الآن رجلا مكتمل البلوغ.

شابينا وماء الحياة

كانت شابينا فتاة فقيرة تعيش مع والديها في أصغر مساكن القرية، وكان الجوع والعوز رفيقين دائمين لحياة الأسرة، لهذا عندما كبرت راحت تتساءل عما ستفعله إزاءهما، كانت تعرف أن والديها غير قادرين على العمل، ولهذا عليها أن تنفذ خطتها لوحدها.

«سأقطف القطن وأعلم نفسي الحياكة»، قالت لنفسها ذات يوم، وسرعان ما امتلكت نولا كبيرا.

نسجت أولا زوجا من الجوارب الجميلة التي تلبسها نساء الهنود في حفلات الرقص، ثم حاكت لنفسها ثوبا جميلا أبيض اللون، وأخيرا صنعت وشاحا رائعا.

ذُهلت القرية بأكملها بمهارتها، وتمنت النساء أن يملكن ما تملكه. وسُرت شابينا عندما طُلِب منها أن تبيع الأشياء التي كانت تصنعها؛ فنسجت ثوبا أجمل ثم باعته «ما المانع، ما دمت أحصل على ثمن جيد»، قالت في نفسها.

وهكذا، بعد مدة صار لدى كل امرأة في القرية ثياب رقص جديدة، إذ إن شابينا لم تتوقف عن الحياكة. وكلما زاد عدد الثياب الجميلة التي صنعتها، تعاظم غرورها. لم تكن غنية وجميلة فحسب، بل مغرورة وجلفة أيضا.

بدأت بنات جيلها يتزوجن، وتقاطر الشبان الهنود يطلبون يد شابينا أيضا، يجلبون لها هدية الزفاف: ثوبا أبيض جميلا نسجوه بأيديهم كما هي عادتهم في القرى إلى يومنا هذا.

لكن شابينا رفضتهم جميعا وكانت تسخر منهم:

«لست بحاجة إلى هداياكم! باستطاعتي أن أحيك أيضا، بل أحيك أفضل مما تحيكون!».

راقب الكبار التعالي وهو يستولي على قلب الفتاة، وهزوا رؤوسهم هزة العارف الحكيم، قائلين لها:

«إن سلوكك غير صحيح، يا شابينا لقد منحتك الأرواح الخيرة ثروة، لأن قلبك كان عطوفا والآن امتلأ بالتعالي ومثل هؤلاء الناس دوما يلقون جزاءهم».

«كُفّوا عن هذا الهراء!» ردت عليهم غاضبة «لو شئت، اشتريت القرية بكاملها وطردتكم منها!».

ومنذ ذلك الزمان لم يعد أحد يجرؤ على تحذيرها، كما أن الشباب جميعا استبعدوا فكرة الزواج منها.

لكن واحدا فقط لم يستطع أن ينسى جمالها، لهذا وصل ليله بنهاره لينسج لها أجمل ثوب عرس.

كان هذا الصبي يدعى جريح الوجه، لأن وجهه كان يحمل آثار مخالب دب حادة، ولما انتهى من حياكة ثوب الزفاف، أخذه إلى شابينا التي سألته مستغربة:

«ما الذي أتى إليّ بك؟».

«إني أثق بطيبة قلبك، ياشابينا، لهذا أحضرت لك هدية العرس»، رد الشاب، وكان على وشك أن يريها الثوب.

«لا تكلف نفسك هذا العناء! لقد سبقك آخرون، وطردتهم جميعا. لا أظن أنك تتوقع مني أن أقضي حياتي أتطلع إلى وجهك المشوه!» كان هذا رد الفتاة القاسي.

أخفض الصبي عينيه، ثم رحل بصمت، وقد جرحته **كلماتها** جرحا عميقا.

لم يخبر جريح الوجه أحدا عن إهانته على يد شابينا، **لكنها** هي لم تألُ جهدا في نشر الخبر بين الجميع.

وكان ذلك آخر أعمالها الشريرة.

حل الليل على القرية، وكان ليلا خانقا بلا نجوم، لا يعكر سكونه بين الحين والآخر سوى عواء كلب تقشعر له الأبدان، وفجأة بدا الظلام في غرفة نوم شابينا يرتجف، ودنت من سريرها ثلاثة أشباح غريبة، لم يكن يدل على حضور هذه الأشباح سوى صوتها الغريب الخافت .

«لقد منحتها الصحة والجمال»، قال الصوت الأول «سأرسل إليها السقام جزاء لها على قسوتها!».

«وأنا أعطيتها المال؛ ولأنها لا تستحقه عليها أن تخسره!».

«إنها شريرة وعديمة القلب»، همس الصوت الثالث «مالم يتطهر قلبها من التعالي، يجب أن تموت! قُضِيَ الأمر!».

لم تقل الأشباح شيئا آخر، إذ ما إن نطق آخرهم كلمته الأخيرة، حتى لمع برق من السحب المدلهمة، وقبل أن يتلاشى وهجه تسلقته الأشباح الثلاثة، كما تصعد سلما، إلى مسكنها السماوي المرصع بالنجوم.

وهبت عاصفة قوية، واستيقظ الناس على صوت الرعد، ثم بدأ المطر يهطل.

كانت شابينا غافلة عن كل هذا، إذ كانت تغط في نوم عميق حتى الصباح، وعندما نشرت الشمس أشعتها على الجدران

البيضاء، فتحت عينيها أرادت أن تنهض، لكن نعاسا غريبا شل أطرافها، وكانت عاجزة عن الحركة.

حاولت أن تنادي أمها الطاعنة في السن، لكن لسانها كان ثقيلا ومتخشبا، فلم تستطع أن تكلمها.

تبين لها الآن أنها مريضة.

وظلت مستلقية هناك، عاجزة، ساكنة، ولم تأت والدتها إلا قبيل المساء، ولما رأت ملامح وجه ابنتها، عرفت أنها مريضة، فأرسلت في الحال في طلب ساحر عله يشفيها.

تردد الساحر في البداية لأنه، كبقية أهل القرية، لم يكن يحب شابينا، لكن عندما عُرِضَ عليه مبلغ هائل من المال، حمل أدويته واتجه إلى فراش الفتاة

أمضى ليلة كاملة هناك وهو يوقد النار تلو النار، واضعا عليها شتى الأوعية التي يغلي فيها الأعشاب، وهو لا ينفك يردد التراتيل.

امتثلت شابينا لأوامره وتجرعت كل الأدوية التي أعطاها إياها، لكنها لم تشعر بتحسن، بل سمعت قبل انبلاج الفجر، ولأول مرة، أصوات الموتى تدعوها إلى أرض الظلال.

في الصباح، أخذ الساحر جائزته، وقال مُوَدِّعًا:

«إن أدويتي جبارة، لكنها لا تستطيع شفاء المرض الذي حل بشابينا، وبما أنك كنت غاية في الكرم، أريد أن أسدي لك مشورة حسنة: هناك ساحر يعيش بين الصخور في الجبال، وله قدرات تفوق قدراتي كثيرا، إن أعطيته كل ما تملكين، سيشفي لك الفتاة بلا شك».

لم يتردد الوالدان لحظة واحدة في استدعاء الساحر الآخر. ظل العجوز يحاول طوال ثلاثة أيام بلياليها أن يخرج المرض من جسد الفتاة، لكن دون جدوى، ولم ينجح إلا في إعادة موهبة الكلام إليها فقالت:

«لليلة الثالثة على التوالي وأنا أسمع نداء أصوات الموتى في أرض الظلال يدعونني. إن نداء الأصوات يزداد عُلُوًّا، وإني أخافها قل لي، أيها الساحر الحكيم، هل يجب أن أموت حقا؟».

هز الساحر رأسه:

«لم تستطع أدويتي أن تساعدك، على رغم أن بلاد الهنود لا تعرف أقوى منها أعرف علاجا، لكني أشك».

«قل لي، أرجوك، أيها الساحر، وسأعطيك كل ما أملك»، توسلت إليه شابينا

«أرى أن المرض قد ذهب بتعاليك، وهذه بشارة خير، ولكي تستعيدي صحتك، تحتاجين إلى المحبة، ولقد طردت كل من تمنى أن يمنحك إياها».

وانفجرت شابينا بالدموع، نادمة على ما بدر منها في الماضي، متمنية أن تصلح ما مضى.

في تلك اللحظة سمعوا صرير سُلَّم يصعده شخص ثم يدخل غرفتها إنه جريح الوجه، الذي جرحته شابينا أكثر من غيره.

«لقد سمعت أنك مريضة مرضا لا شفاء منه»، قال لها «أكاد لا أصدق هذا، لكني متأكد أنك ستشفين قريبا».

«لا، لن أشفى»، ردت شابينا بحزن «لن أشفى، لأنني لم أحب إلا نفسي».

«هل تود مساعدتها؟» قاطعهما الساحر:

«أجل، أود ذلك حقا»، رد الصبي «إنني لا أزال أحب شابينا، على رغم أنها تمادت في قسوتها وإيلامي».

«يوجد في الصحراء، بعيدا عن قريتكم، جدول ماء الحياة»، قال الساحر وهو يخفض صوته.

«عليك أن تجده وتأتيني بالماء فورا خذ إبريقي، لأن الماء لا يجف فيه قط»

أخذ جريح الوجه إبريق الساحر، واستعد للرحيل.

«انتظر»، استوقفه الساحر «تذكر أن جهودك لن تُجزى إلا إذا كنت تحب شابينا حقا، وإلا فلن تجد ماء الحياة».

ظل الشاب يطوف في الصحراء طوال ثلاثة أيام، لكنه لم يجد أثرا للجدول الذي ذكره الساحر. لم يجد سوى كثبان الرمل الحارة ظن أكثر من مرة أنه وجده، لكنه كان دوما يكتشف أن ذلك لم يكن سوى سراب.

وفي اليوم الثالث كان مرهقا، فاستلقى على الرمل ونام، ورأى شابينا الجميلة في منامه، وكانت تبتسم له وتغني أغنية جميلة ذكرته بمناغاة جدول بعيد.

وفي تلك اللحظة استيقظ قفز من نومه، لكنه لم يجد سوى البيداء تحيط به من كل جانب لم يكن هناك أثر لشابينا. لكنه ظل يسمع هدير الماء وبقوة أكثر من ذي قبل.

عندها أدرك أن الجدول يسري في جوف الأرض راح يزيل الطبقة العليا من الرمال حتى وصل إلى القاع الصخري ولما اشتد به التعب، يئس من الوصول إلى الماء أبدا وعندما تمكن من إزاحة صخرة هائلة، تدفق من الأرض عمود هائل من الماء.

وما إن غسل وجهه، حتى شعر بالحيوية والنشاط، بل الأكثر من هذا أن الماء أزال الندب من وجهه حتى لم يبق لها أثر إطلاقا.

وبعد أن ملأ إبريق الساحر بماء الحياة، أسرع عائدا إلى القرية.

كانت شابينا تحتضر، وفي هذه الأثناء اقتنعت بأن الشاب عجز عن إيجاد النبع السحري، وأن عليها أن ترحل عن هذه الدنيا، وكان كل ما تتمناه الآن هو أن تلقي نظرة أخيرة على جريح الوجه لتودعه قبل الممات، لهذا عندما دخل، اعتدلت في جلستها في الفراش وكانت على وشك أن تلفظ أنفاسها، لكن الشاب عاجلها فناولها شربة من إبريق الساحر. وشفيت شابينا من الرشفة الأولى، خرجت من فراشها وألقت نظرة امتنان على الصبي الذي أنقذ حياتها، ثم انتبهت عندئذٍ إلى وجهه الذي لم تعد تشوهه الندب.

«أجل، لقد ساعده ماء الحياة أيضا»، قال لها الساحر، وهو يتقدم نحوهما التفت إلى الصبي وقال: «إني أعلم مدى محبة شابينا لك، وأعتقد أنكما ستكونان سعيدين معا، لكن إياك أن تسمحي للتعالي أن يستوطن قلبك ثانية».

وما إن قال كلماته، حتى استدار الساحر وغادر المنزل.

قصة نياغرا

منذ أقدم العصور ومياه نياغرا تتساقط في الممر الضيق العميق، جارفة أمامها كل ما تصادفه في طريقها، لكن الهنود الذين يعرفون نياغرا لا يهابونه، سواءٌ أكانوا يسمعون هدير الشلال في رحلاتهم النهرية الطويلة، أم وهم بقرب مواقدهم، أم في نومهم، وهذا عائد إلى معرفتهم بالقصة التالية:

كانت غادة حسناء تعيش في مخيم هندي، وحاول كثير من الشباب الطيبين الشجعان الجريئين أن يخطبوا ودها، لكن والديها زوجاها في النهاية إلى عجوز سيئ الطبع، لكنه ثري، فكان يعذبها ويضربها. لم تكن تحصل على ما يكفيها من الطعام، وكان عليها أن تعمل من شروق الشمس إلى غروبها، بينما كان العجوز الجشع يكدس ثروته ويحرسها بغيرة.

لا عجب، إذ إن الفتاة كانت تبكي أينما ذهبت حاولت عدة مرات أن تهرب منه، لكنه كان دوما يمسك بها ثانية، وكانت حالها تزداد سوءا عما قبل.

«أفَضِّل أن أموت على أن أعاني هكذا لحظة أخرى»، قالت لنفسها ذات يوم كان الوقت مساء وكان الصيادون يعودون لتوهم في قواربهم إلى بيوتهم كانت الفتاة تراقبهم وهم يتجهون نحو الشاطئ، وعندما ذهب كل إلى وجهته، قفزت بسرعة إلى أحد القوارب وحملها التيار إلى الشلال مباشرة، حيث ينكسر الماء فجأة في نزول رأسي نحو الهاوية وهوى القارب كما يهوي

الحجر، فأغمضت الفتاة عينيها، وانتظرت نهايتها لكنها دُهشت أيما دهشة، فبدلا من الارتطام بالسطح ارتطاما عنيفا، تهادى القارب بخفة، كأن يدا عملاقة تمسك به.

وجدت الفتاة نفسها داخل كهفٍ هائلٍ، تسد مدخله مياه الشلال العظيم

«اقتربي مني، اقتربي مني»، سمعت صوتا عطوفا يناديها، وفجأة ذهب عنها الخوف نظرت باتجاه الصوت، فإذا بها ترى إنسانا هائلا يبلغ طول خنصره طول قاربها.

«من أنت؟» سألته.

«أنا حَنّون العملاق الطيب، وأريد مساعدتك لقد أخبرني نياغرا أنك قادمة يمكنك أن تعيشي هنا في مسكني إلى أن يموت العجوز الأناني».

كانت الفتاة غاية في السرور في أثناء إقامتها في كهف العملاق، ولم يكن ينقصها شيء وكان حنون يروي لها أخبار المخيم، وأخبار العجوز الذي كان يبحث عنها بلا طائل.

وذات يوم، عاد إلى بيته عابسا، على غير عادته، فقال لها:

«إن زوجك رجل شرير وجشع إلى أبعد الحدود فلكي يجمع من الثروة ما يستطيع، يقوم بشراء ماء النار(*) من شاحبي الوجوه ويبيعه للهنود بأثمان عالية وهو يعلم جيدا أن ماء النار مضر بصحة الرجال الحمر، لكنه لا يهتم إلا بجمع الثروات».

«وماذا ستفعل، يا حنون؟».

(*) «ماء النار» هي التسمية التي أطلقها الهنود الحمر على المشروبات الكحولية التي لم يعرفوها قبل قدوم المستوطنين الأوربيين إلى بلادهم (المترجم).

«يجب أن أبارزها»، رد العملاق، وخرج قبل أن تتمكن من طرح المزيد من الأسئلة.

كان العجوز يجلس في الكوخ على الأرض، وهو يتباهى بأكوام الثروة المتلألئة، ويتغزل فيها بشفاه نضب الدم منها.

كانت شفتاه اليابستان تردد: «يا أصدافي الجميلة، يا أصدافي الرائعة، ما زال هناك القليل منك».

وكان غارقا فيما هو فيه إلى درجة أنه لم ينتبه إلى العاصفة الثلجية التي كانت تهب في الخارج، ولم يعتدل العجوز في جلسته إلا عندما ضربت الريح جدران كوخه بعنف.

«ماذا يجري؟» قال هامسا، وقد استولى عليه شعور بالرعب.

وزعق صوت الرعد، وهرع العجوز إلى الخارج، فوجد نفسه وجها لوجه مع حنون. كان وجه العملاق محمّرا من الغضب.

«جئت لأعاقبك على كل أفعالك الشريرة»، قال مهددا. قهقه العجوز بسخرية، وقال: «لقد أخطأت ياحنون فالأرواح الشريرة أقوى منك!» رفع يديه فوق رأسه، وراح يُطَوِّح بهما كجناحين، ويتفوه بكلام غير مفهوم وفجأة اسْوَدَّ وجهه وتحجر، وكذلك تحجرت ذراعاه وساقاه وسائر جسده في الوقت ذاته.

تقدم الوحش الحجري، واهتزت الأرض من تحته، بينما راح حنون يطلق عليه السهم تلو السهم من دون طائل.

«ها، ها! لا تستطيع سهامك إيذائي!» تبجح المسخ المرعب، وهو يكسر السهام بأصابعه الحجرية إلى نصفين.

ولى حنون هاربا، يطارده العجوز. وبقفزة واحدة وصل العملاق إلى الصخرة المطلة على الشلال وراح يتسلقها، ومرة ثانية تبعه

العجوز. وقف حنون على أعلى قمة في الجرف، فلامس رأسه الغيوم السوداء، لكن خصمه لحق به وبدأ يدفعه نحو الهاوية، قاومه العملاق بكل ما أوتي من قوة، لكنه وهن تدريجيا وصار على شفا الهاوية، ولم يتحرر من قبضة المسخ الحجري المميتة ويقفز جانبا إلا عندما كان فعلا ينحني فوق المنحدر، وهو يحس بزفير المسخ يشوي جلده. حاول العجوز أن يتفادى السقوط أيضا، لكن حافة الصخرة لم تحتمل ثقله فتفتتت تحته.

ورددت الصخور صدى جلبة هائلة لدى وقوع العجوز الذي تكسر جسده الحجري إلى قطع عديدة، وهربت الأرواح الشريرة التي كانت إلى الآن تحميه، وهي تُوَلْوِل: «ويلاه، واحد منا، ويلاه!» ورددت البلاد صدى عويلها: «ويلاه، ويلاه!».

سمعت الفتاة المنتظرة في الكهف الأخبار، أيضا لم تعد تطيق الانتظار حتى يعود العملاق، ولما عاد قالت له:

«أعلم أنك قد هزمت العجوز الجشع، ولن أنسى لك أبدا ما فعلته من أجلي. والآن، أعتقد أنه يجب علي أن أعود إلى موطني، وأرجو أن تتفضل بمساعدتي لعبور الشلال».

«اصعدي القارب»، قال حنون، وعندما فعلت، التقط المركب بيد وأوقف الشلال بالأخرى لكي لا يؤذيها، ثم وضع القارب برفق على الضفة.

«لا خوف عليك من زوجك بعد اليوم»، قال لها مودعا «وإن شاء أحدهم إيذاءك ثانية، فليذهب إلى الصخور وينظر إليها»، ألقى العملاق نظرته الأخيرة، ثم توارى خلف شلالات نياغرا الهادرة إلى الأبد.

تطلعت الفتاة حولها متسائلة:

لربما كان الأمر برمته مجرد حلم لكن لا، فهنا كان الدرب الذي يؤدي إلى المخيم وهناك لم تجد زوجها، وعندما ذهبت مع الآخرين إلى الصخور، رأوا بأعينهم ما حدث، كانت تتناثر هنا وهناك حجارة سوداء كبيرة، تذكر كل من يشاهدها بجسم بشري.

«إذن هذا ما تبقى من العجوز الشرير»، قالت الفتاة وهي تستحضر كلمات العملاق: «لتكن هذه الحجارة عبرة لكل هندي طامع بالغنى والثراء الفاحش».

كيف دُفِنَت فأس توماهوك الحربية

في قديم الزمان كان زعيم حكيم يعيش في قرية ما خاض حروبا كثيرة، وكان معروفا للجميع أنه أقوى المحاربين وأشجعهم.

وذات يوم كان يراقب الأطفال وهم يمرحون أمام الأكواخ، فتساءل عما ستؤول إليه أحوالهم عندما يكبرون. ربما سيصير الصبيان صيادين ومحاربين أشداء مثله، لكن من منهم سيعيش حتى تنضج شيخوخته كي يستفيد من كل خبراته المكتسبة، فتصبح على يديه حكمة نافعة؟ لا شك في أنهم سيحرزون الانتصارات، وسيفوزون بفراء رؤوس أعدائهم، كما أنهم سيُهزَمون بدورهم، ويحظى أعداؤهم بفراء رؤوسهم أما الفتيات، فسيصبحن زوجات للمحاربين، وكثير منهن سيمتن بعيدا عن بلادهن. قد ينلن شيئا من السعادة، لكن الهموم والشيخوخة ستُكتَب على وجوههن المخددة أسفا وحزنا على أزواجهن وأبنائهن الذين قضوا نحبهم على دروب القتال.

وهكذا ظل الزعيم يتأمل ليلا ونهارا، فأدرك أن الهنود لم يُخلقوا للقتال والموت، بل ما يريدونه حقا هو أن يعملوا بسلام وطمأنينة. ومن هنا نشأت فكرة عظيمة نادى بموجبها لاجتماع القبيلة بأكملها.

وعندما اجتمع شمل القبيلة، نهض وحدثهم عن حروب لم تجلب الخير للرجال الحمر، وتحدث عن صيادي فراء الرأس الذين يهاجمون فُرادى المحاربين، فقط ليحصلوا على دليل انتصار آخر، ثم قال:

«إن أول هندي حمل فأس التوماهوك في وجه أخيه هو هندي غير صالح.

«وعلى رغم أن عادة أخذ فروة الرأس أصبحت تسري في عروقنا، فلا يوجد من داعٍ لأن نستمر فيها، فهي عادة سيئة».

هكذا تحدث الزعيم الحكيم، ورأى الآخرون أنه على حق؛ لهذا قرروا ألا يصبغوا وجوههم وألا يسيروا على دروب القتال مالم يهاجمهم الآخرون.

«لكن من سيبلغ رسالة السلام هذه إلى القبيلة المجاورة؟» سألوا «خفيف الوطء، والظبي الرشيق»، قال زعيمهم:

كان هذان الهنديان شابين وسيمين، وأسرع العدائين في القبيلة. تألقت أعينهما بالفرح عندما أوكل إليهما الزعيم المهمة، وراحا يستعدان للرحلة بلا توانٍ

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي عندما لامست أشعة الشمس الأولى إبر الصنوبر المتناثرة في أرض الغابة، تسابق الصديقان الشابان، وجاء أهل القرية جميعا ليودعوهما.

وسرعان ما وصلا إلى غابة كبيرة، وعلى الرغم من أن اليوم كان مشمسا، صافيا، لم تستطع حزمة ضوء واحدة اختراق الأوراق الكثيفة، واعترضت سبيلهما جذوع أشجار متساقطة، وأجمات شائكة، ومستنقعات، لكن الشابين لم يستسلما، إذ تحول أحدهما إلى ذئب، والآخر إلى بومة، وهكذا تغلبا على كل عقبة، ولما وصلا إلى أقرب قرية هندية، اتخذا هيئتهما البشرية ثانية ودفنا أسلحتهما

أثار وصولهما شيئا من الهيجان في القرية التي خرج أهلوها، ما عدا المرضى والمسنين، ليتطلعوا باتجاه الغابة التي وقف عند حافتها اثنان من ألد أعدائهم.

ولما كان الشابان بلا سلاح أو صباغ وجه، سمحوا لهما أن يمرا بأمان في وسط القرية، حيث ناولا زعيمها المذهول رسالة سلام من قبيلتهم، استمع إليهما الزعيم حتى النهاية، ثم قال:

«إني معجب بمبادرة قومكم، وهي مبادرتي كذلك، لكن قبل أن أعطيكم جوابي، علي أن أستشير محاربيَّ، وفي هذه الأثناء أريدكما أن تكونا ضيفيَّ».

وبينما كان يتكلم، كان رجاله البواسل يتجمعون حوله، ورحب معظمهم بإنشاء السلام في بلاد الهنود. لم يعترض على الاقتراح إلا نفر أعمى قلوبهم وعقولهم حب القتال. إلا أن كلمات زعيمهم الحازمة أسكتت حتى هؤلاء:

«إني أعلم علم اليقين ما تعنيه الحرب. لو انهمرت الدموع التي تذرفها نساء الهنود على أزواجهن وأبنائهن المفقودين سوية، لصنعت محيطا من الحزن؛ ولو اجتمعت الدماء التي يريقها محاربونا في جدول واحد، لفاضت كل بحيراتنا وأنهارنا بالدم. لو سار رجالنا على درب الصيد لا درب الحرب، لما وجد الجوع والعوز مكانا لهما في مخيماتنا. إن الحرب تعني الخراب والدمار والموت، هذه هي الحكمة التي تعلمتها بعد سنين عديدة بعثرتها في دروب القتال، ولا يظنن أحد منكم أنني جبان، إذ أرسل الرسالة التالية إلى جيراننا: أنا، بصفتي زعيما لقومي، أقبل كل كلمة في مبادرتكم، ولنلتقِ بعد أربعة أيام من تاريخه في منتصف

الطريق بين مخيمينا عند المرج الكبير بجانب النهر، فهناك سنحفر حفرة كبيرة نلقي فيها كل أسلحتنا، ثم سنتصافح ونعيش إخوة إلى الأبد».

فرح خفيف الوطء والظبي الرشيق لسماع هذه الكلمات، وبعد أن قدمت لهما أجمل حسان القرية نعالا جديدة، انطلقا في رحلة العودة.

كانت الفرحة التي استقبلهما بها أهلهم تفوق كل وصف. وبفارغ الصبر انتظر الهنود اللحظة الكبرى ثلاثة أيام بلياليها، وفي صباح اليوم الرابع اجتمعوا في أبهى حللهم أمام كوخ زعيمهم، ثم انطلقوا نحو المرج الكبير، منشدين راقصين

وفي منتصف الطريق رأوا حفرة عميقة يقف على جانبها الآخر أهل القرية المجاورة.

كان الزعيمان أول من تقدم، فألقى كل منهما فأس التوماهوك الحربية في الحفرة، وشدّا الأيادي كالإخوة. وحذا الآخرون حذوهم، وعندما ألقى آخر اثنين أسلحتهما فاقت فرحة الجميع كل الحدود رقص الجميع، رجالا ونساء، فتيات وفتيانا، فردد النهر والغاب صدى أغانيهم المرحة.

حتى الشمس لم تكن راغبة في النوم ذلك اليوم، فتباطأت بين غيمات المساء كأنها لا تريد أن تفارق هذا المشهد البهيج وتحرم الهنود من ابتسامتها، لكنها أغمضت عينيها أخيرا إغماضة هانئة، ثم تهادت إلى فراشها الذهبي وراء الأفق، وظلت تلك الابتسامة السعيدة لا تفارق وجهها إلى يومنا هذا.

سر القلموت

«لقد انتهت حكاياتي»، قال القلموت، قاطعا الصمت العميق الذي ساد بعد كلماته الأخيرة.

«كيف هذا؟» سأل الصبي «لم تقص عليَّ بعد عن قتال الهنود لشاحبي الوجوه»

«أنا لا أتذكر إلا الحكايات التي سمعتها عند موقد المخيم، عندما كان السلام يسود بلاد الهنود، كما أن سفن شاحبي الوجوه لم تصل إلا بعد زمن متأخر وعندما جاء شاحبو الوجوه، انقلبت فجأة طمأنينة المكان الذي شهد التقاء الجبال بالمروج، والغابات المكللة بالثلوج مع الصحراء القاحلة، وكذلك تحول المكان الآمن الذي كنت أحرس عنده نار المخيم، وهرب مئات من الهنود نحو الغرب. وذات يوم عندما ظهرت على الأفق سحابة من غبار أحمر فهمت السبب: وهذه المرة لم تكن قطعان البيسون التي رأيتها من قبل هي التي تثير الغبار، بل كانوا جنودا يمتطون خيولا مُطَهَّمة - إنهم جيش شاحبي الوجوه! لقد اخترقوا المخيم كالإعصار، وكانوا يدعو بعضهم بعضا بلغة لم أفهمها، ثم حدث شيء أغرب من هذا، خرج هندي من الغابة المجاورة، أردت أن أصرخ له كي يطارد هؤلاء الغزاة، لكن واحدا منهم سبقني، فأوقف حصانه، ووضع عصا طويلة أمام وجهه، كأنه يسدد، ثم وقعت الواقعة: خرج من العصا لسان من النار، يتبعه دوي هائل، وسقط الهندي صريعا عند حافة الغابة».

«لا بد أنها كانت بندقية»، قال الصبي.

«أجل، لقد عرفت ذلك أيضا منذ تلك الساعة، لم أر هنديا واحدا بعدها لفترة طويلة لقد دُمِّرَ مخيمهم، وبدا لي كأن ناره لن توقَد ثانية».

«لكنني كنت مخطئا، ففي ليلة ضبابية استيقظت على وهج أعرفه وأصوات تتحدث بلغة أفهمها. كان عدد من الهنود يتحلقون حول النار ويتجادلون، ثم عثر عليَّ أحدهم».

«انظروا، لقد وجدت قلموتا، لا بد أن مانيتو ذاته قد أرسله إلينا لنأخذه معنا».

«وأخذني الهنود معهم، وعندها كانت مغامرتي الكبرى».

«أرجوك، أخبرني عنها»، توسل الصبي.

ثم توقف القلموت، مستغرقا في التفكير:

«إن فعلت هذا، سأصير ترابا لأنني سأكون قد أفشيت سري الأعظم لكائن بشري لكنني رويت لك كل حكايات الهنود الأخرى التي أعرفها، وأنا واثق أنك سترويها بدورك للأطفال الآخرين والآن استمع إلى آخر هذه الحكايات:

«لقد حملني الهنود أينما ذهبوا، وكانت رحلة حافلة بكل شيء إلا المسرة، إذ كان الموت يتربص بهم في كل مكان، موت تحمله لهم بنادق شاحبي الوجوه الطويلة».

«كابد الهنود البرد والجوع، إذ لم يجدوا الوقت للخروج إلى الصيد، وما كان بإمكانهم إشعال النيران مخافة أن يطلع العدو على مخابئهم. ماتت نساء وأطفال كثيرون، وكذلك مات أشهر المحاربين: عين الصقر، السهم الصافر، السحابة الحمراء، خفيف الوطء وغيرهم كثيرون.

«وفي يوم من الأيام، ظننت أن الهنود أُرهقوا وسُدَّت أمامهم السبل، إذ وجدوا أنفسهم أمام جبال شامخة وعرة، يحيط بهم من كل جانب جنود بيض، متأهبون لإطلاق النار، مشكلين دائرة كثيفة لا تأمل حتى فأرة أن تنجو منها».

«وفي تلك الليلة عندما أطل القمر وأنار الوجوه الحمراء نهض الزعيم فتيلة الدخان الأخيرة وقال:

«اليوم غربت خلف الربى شمس مدماة، أخشى أن يكون هذا نذير شؤم أرسله لنا مانيتو ليعلمنا أننا في الغد سنخوض آخر معاركنا، وأننا سنُهْزَم».

«نحن نعلم أننا أصحاب حق، وسنقاتل قتال الرجال من أجل بلادنا، لنرد عنها كيد شاحبي الوجوه الذين جاءوا ليسلبوها منا ويسلبونا حريتنا».

«لكن معرفتنا بأننا أصحاب حق لم تنفعنا أبدا، لقد أحسنّا وِفادة شاحبي الوجوه، وكان جزاء كرمنا ماء النار التي تذهب بلب الرجل الهندي، وأمراضا أبادت مخيمات وقرى عن بكرة أبيها، لكن القادم كان أعظم: بدأ شاحبو الوجوه بمصادرة مرابع صيدنا التي ملكناها من الأزل، واليوم يطاردوننا من مكان إلى آخر، ونحن لا نملك حولا ولا قوة أمام أسلحتهم ليكن هذا حَدَّنا، أيها الإخوة فإذا كان ليس من الموت بُدٌّ، فليكن ذلك غدا، نقاتل فيه قتال الرجال ولكن شيئا واحدا يحز في نفسي، ألا وهو، ماذا سيحل بنسائنا وأطفالنا؟ ولا أظن أعداءنا سيتورعون عن قتلهم في المعركة. ربما يجدر بنا أن نستسلم، عسى أن ترق قلوب البيض لمرأى أناس لا حول لهم ولا قوة».

«ولما أنهى الزعيم حديثه، وقف هندي يدعى الكشاف الكبير،

وقال:

«يؤسفني ما قاله فتيلة الدخان الأخيرة، ليس لأن كلامه يفتقر إلى الحكمة. فصحيح أن أجسامنا هَدَّها الترحال الذي لا ينتهي، وأن نفوسنا تفيض أسى وحزنا على ضياع أرض الأجداد وموئل الأحفاد إلى الأبد».

«لقد أصاب فتيلة الدخان الأخيرة حين قال إننا لا نزال أحرارا، وهو يريدنا أن نخرج غدا للقتال نحن نعلم جميعا أي قتال غير متكافئ سيكون ذلك. وكيف لنا أن نثق برحمة الرجل الأبيض إن نحن ألقينا سلاحنا؟ لا، فهذا يعني أننا سنمضي بقية أيامنا التعيسة في بيوت حجرية يسمونها قلاعا وسجونا، أنا نفسي سُجِنْتُ أكثر من مرة في هذه القلاع، ولكنني بفضل نعليَّ الصامتين كنت دوما أتمكن من التسلل من بين الحراس، وأسترد حريتي».

«فما الذي يمنعني من تكرار ذلك الآن؟ لقد تجولت في حياتي في طول بلاد الهنود وعرضها، وأعرف كل ركن من أركانها، وهذه الديار ليست استثناء، فهناك ممر سري يمكننا أن نعبر منه سأخرجكم من هذا الطوق، ونتابع المسير حتى نجد في بلادنا هذه بقعة لن يستطيع أحد أن يطردنا منها ثانية والسلام».

«ترك كلام الكشاف الكبير أثرا عميقا في عقول الهنود جميعا وفي تلك الليلة وحالما توارى القمر خلف الروابي، غادروا معسكرهم وتسللوا عبر طوق الحراس البيض، يتبعون الممر السري الذي أخبرهم الكشاف الكبير عنه».

«أذكر كيف وجدت نفسي آنئذٍ في قارب؛ كان الهنود قد وصلوا النهر العجوز، وراحوا يشقون طريقهم عبر مياهه نحو الجنوب، وحتى

هناك لم يجدوا مرابع صيد يستقرون ويعيشون فيها بسلام، إذ طاردهم شاحبو الوجوه في كل مكان، ولولا مهارة الكشاف الكبير ومعرفته، لما تمكنوا أبدا من النجاة. طافوا الجنوب كله، وحملوني عبر بلاد الثلج، عبروا الوديان والبحيرات حتى وصلوا أخيرا منطقة الشلالات الهادرة، لكن أعداءهم ما انفكّوا يتعقبونهم».

«ومع مرور السنين، تكاثرت أعداد شاحبي الوجوه في بلاد الهنود، بينما راحت النيران في مواقد الهنود تخمد الواحدة تلو الأخرى».

«لا أحد يعلم غير مانيتو كم شاهدت في تلك السنين من أطلال خاوية، وطواطم مدنسة، ومواقد عاثت فيها يد الدمار ولا أحد يعلم أيضا سوى مانيتو كيف راح الكشاف الكبير وثلة من الهنود المغاوير يبحثون بلا كلل عن بقعة لم يتسلل إليها الرجل الأبيض بعد».

«وفعلا ظن أحيانا أنه قد نجح، فتحت إمرته ربح الهنود معركة النبع المفقود الشهيرة، حيث استطاعوا أن يعيشوا بسلام لأشهر عدة إلى أن أجبرهم زعيق بوق الجيش المعهود أن يواصلوا الرحيل ثانية».

«طال المسير، وسرعان ما راح الهنود- الذين ساروا على هذا الدرب - يلبون نداء أسلافهم الموتى، لينضموا إليهم في أرض الظلال».

«وهكذا ودع الكشاف الكبير فتيلة الدخان الأخيرة المحتضر، وتابع مسيرته التي لا تنتهي، وحيدا، ولم يبق لديه سوى قوسه ونشابه وأنا».

«ومرة أخرى رأيت بحيرات وأنهارا ومروجا لا حدود لها، ثم وصل الكشاف الكبير ثانية إلى المكان الذي تلتقي عنده الجبال بالمروج، والغابات المغطاة بالثلج بالصحراء القاحلة اللاهبة».

وصمت القلموت

«وهناك؟» سأل الصبي.

«وهناك تركني الكشاف الكبير، لكنه قبل رحيله حدثني قائلا: سأظل أطوف في بلاد الهنود إلى أن ينتهي هذا العالم، بحثا عن مكان يعيش فيه الرجال الحمر بسلام وسعادة، وعندما أجده، سأحدث بشأنه أشجار الغابات، وأعشاب المروج، ومياه الجداول والأنهار والبحيرات، وحجارة الجبال والوديان، والشمس والظلام ونجوم السماء، والسحاب والرياح، وسأطلب منها جميعا أن تبلغ رسالتي إلى قومي».

«سلام!»

قال هذا، وتلاشى القلموت في نفحة من دخان قفز الصبي باتجاه المائدة، ينتظر الدخان حتى يتبدد، ولما خَفَتَ وهج النار المطقطقة، لم يجد من القلموت سوى كومة غبار ضارب إلى الحمرة.

«إذن، هذا هو سر القلموت المقدس!» همس، وهو يتأمل في آخر ما قاله له القلموت».

أخذ الصبي صندوق نفائسه، ثم وضع فيه كل ما تبقى من الغبار بعناية. شعر وهو يمسك الذرات الحمراء الناعمة بين أصابعه أن كل واحدة منها كانت تروي له مرة أخرى واحدة من الأساطير التي سمعها من القلموت السحري على مدى الأمسيات الثلاث الماضية.

محتويات الكتاب

تصدير ٥
شكر وعرفان ٧
مقدمة المؤلف ٩
قال القَلَموت ١٤
الليلة الأولى
* الضوء الأول ١٩
* من أتى بالشمس؟ ٢٣
* أسطورة النار ٢٩
* الطوفان الكبير ٣٣
* مجيء الهنود إلى هذا العالم ٣٧
* ذلك الأثر الأبيض في السماء ٤١
* ثعبان قوس قزح ٤٣
* الأطفال الضائعون ٤٥
* النيلوفر الأبيض ٤٩
* الداء والدواء ٥٥
* الهندباء البرية ٥٧
* شيبة السيدة العجوز ٦١
* هدية الطواطم ٦٥
* الهنود والموت ٧٣
* النشيد الخالد ٧٩
* مبارزة كبير الأرواح مع رب البِيض ٨٣
الليلة الثانية
* حكايات عن الغاب والحيوان ٨٧
* ميلاد الخيول الهندية ٨٩
* البومة والفأرة الصفراء ٩٥

* الظبي المسحور ٩٩
* الكراكي الذهبية ١٠٥
* شِجار الأصدقاء ١٠٩
* صداقة القُضاعة ١١٥
* الذئاب والظباء ١٢٣
* الأرنب والسنورة ١٢٧
* كيف صار للثعبان أنياب سامة ١٣٣
* الظِّربان والروح الشريرة ١٣٧
* الفراولة ١٤١
* القيّوط والبيسون ١٤٥
* القيّوط والثعلب والجبنة ١٥١
* الغراب والحوت ١٥٥
* كيف صار ذيل الأوبوسم بلا شعر ١٥٩
* القُندُس والشَيْهَم ١٦٣
* صديق الإنسان الوفي ١٦٩
* الحرب الأولى ١٧٣

الليلة الثالثة

* «شَنْجَبيس» وريح الشمال ١٨١
* «هيَواثا» الحكيم ١٨٧
* مغامرات «منَابوش» ١٩١
* «أوكِّتيوِنْدو» والإوز البري ١٩٩
* «ويهايو» السائح ٢٠٩
* البجعة الأرجوانية ٢١٧
* «آهايوت» وآكل السحاب ٢٢٣
* «شابينا» وماء الحياة ٢٢٧
* قصة «نياغرا» ٢٣٥
* كيف دُفِنَتْ فأس «التوماهوك» الحربية ٢٤١
* سر القَلَموت ٢٤٥

المؤلف في سطور

فلاديمير هلباتش

● من مواليد ١٩٣٥، براغ، جمهورية التشيك.

● درس اللغات التشيكية والروسية والصربو- كرواتية في بداية حياته الجامعية في جامعة «تشارلز» في براغ، ثم انتقل إلى دراسة الفلسفة حيث تخرج عام ١٩٥٩.

● عمل بين عامي ١٩٦١- ١٩٧٢ منقحا في دار «أرتيا» للنشر، التابعة لأكاديمية العلوم التشيكوسلوفاكية، ثم مساعدا للتحرير فيها بين عامي ١٩٧٧- ١٩٨٨.

● عين مسؤولا عن قسم أدب الأطفال في وزارة الثقافة التشيكوسلوفاكية بين عامي ١٩٧٢- ١٩٧٧.

● كرس نفسه تماما للكتابة بين عامي ١٩٨٨- ١٩٩٠، وهو يدير الآن دار نشر تدعى «فينكس» أسسها عام ١٩٩٠.

● كان معروفا بغزارة إنتاجه واهتمامه بالحكايات الشعبية وأساطير الشعوب وإعادة روايتها، وقد انتقى كثيرا من هذه الأساطير وأعدها للإذاعة والتلفزيون التشيكوسلوفاكي، لكن أهم عمل قام به هو جمعه لأساطير الهنود الأمريكيين في شطري القارة ونشرها باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٥.

المترجم في سطور

د. موسى الحالول

● من مواليد الرقة ١٩٦٥، الجمهورية العربية السورية.

● حاصل على إجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة حلب بسورية ١٩٨٧ ودبلوم دراسات عليا أدبية ١٩٨٨.

● نال درجة الماجستير في الأدب المقارن من جامعة بنسلفانيا الحكومية بالولايات المتحدة الأمريكية ١٩٩١ والدكتوراه في فلسفة الأدب المقارن ١٩٩٥ من الجامعة نفسها.

● عمل منذ عام ١٩٩٥ مدرسا للأدب الإنجليزي في جامعة تشرين بسورية، ومنذ عام ١٩٩٩ أستاذا مساعدا في جامعتي جرش والعلوم التطبيقية بالأردن.

● له بحوث وترجمات منشورة في دوريات عربية وإنجليزية، كما ترجم «حكايات إيسوب» بالاشتراك مع سمر رزق، ونشر مجموعة قصائد وقصصا قصيرة باللغة الإنجليزية تحت عنوان «قواعد جديدة للنظام العالمي الجديد».

المراجعة في سطور

د. زبيدة أشكناني

● حاصلة على شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا الاجتماعية من جامعة درهام.

● أستاذ مساعد في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب.

● لها بحوث عدة في الأنثروبولوجيا، إضافة إلى عدة ترجمات من اللغة الإنجليزية والفارسية إلى العربية.

إبداعات عالمية

334

حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم

تعكس هذه المجموعة القصصية «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم» التي جمعها فلاديمير هلباتش، معتقدات هنود القارة الأمريكية الشمالية فيما يخص نواميس الطبيعة وظواهرها، وأيضا قوى الحيوانات الخارقة التي كان الهنود الحمر يعتقدون أنها أسلافهم . لقد توصل الهنود إلى أصل كثير من أسرار الطبيعة والقوى الخيالية للحيوانات بوساطة الأساطير والقصص المتواترة شفهيا من جيل إلى جيل.

كانت تعيش في شمال أمريكا قبائل هندية عديدة، وكانت تختلف اختلافا كبيرا في أنماط معيشتها، كما يتضح ذلك من خلال حكاياتهم، فهنود الحراج في الشمال الشرقي، مثلا، كانوا يعيشون على صيد الحيوانات البرية، ولأن منطقتهم كانت مملوءة بالبحيرات والأنهار، فقد كانوا يستخدمون القوارب في تنقلهم، لذا فإن أبطال أساطيرهم كانوا يملكون سهاما سحرية ونعالا تقود أصحابها إلى الوجهة الصحيحة، وقوارب تحلق في الجو. أما هنود الجنوب الشرقي، فقد كانوا يحبون الاستماع إلى قصص الحيوانات ولا سيما القصص الفكاهية، كما تزخر هذه المنطقة بأساطير عن التبغ والذرة والأعشاب الشافية. بينما شاهد سكان غربي المسيسيبي آلاف النجوم تتلألأ فوقهم كل ليلة، وتساءلوا كيف بلغت النجوم السماء؟ فعبروا عن أفكارهم حول الكون في أساطيرهم. ونذكر أيضا على سبيل المثال، الهنود في أقصى شمال كندا الذين كانوا يجاورون الإسكيمو، وكانوا يصطادون حيوان الرنة، ويجولون في بلاد يغطيها الثلج معظم شهور السنة، لذا فإن حكاياتهم كانت تتحدث غالبا عن عدوين ملازمين لهم، وهما البرد والجوع.

نقل الكاتب هذه الحكايات والأساطير الهندية على لسان القلموت - وهو وسيلة للتدخين - ولكن لماذا أسند إلى القلموت دور الراوي؟ ذلك لأنه كان يصنع من خشب الدردار، وهو أقدس شيء عرفه الهنود، وكانوا يعدونه محرابا لهم ووسيطا يشفع لهم عند الأرواح، كما يؤدي دورا مهما في مجالسهم، وكذلك في محادثات الصلح بينهم، لهذا لقب أيضا بـ «غليون السلام».

ردمك ٤ - ٠٦٩ - ٠ - ٩٩٩٠٦

ISBN 99906 - 0 - 069 - 4